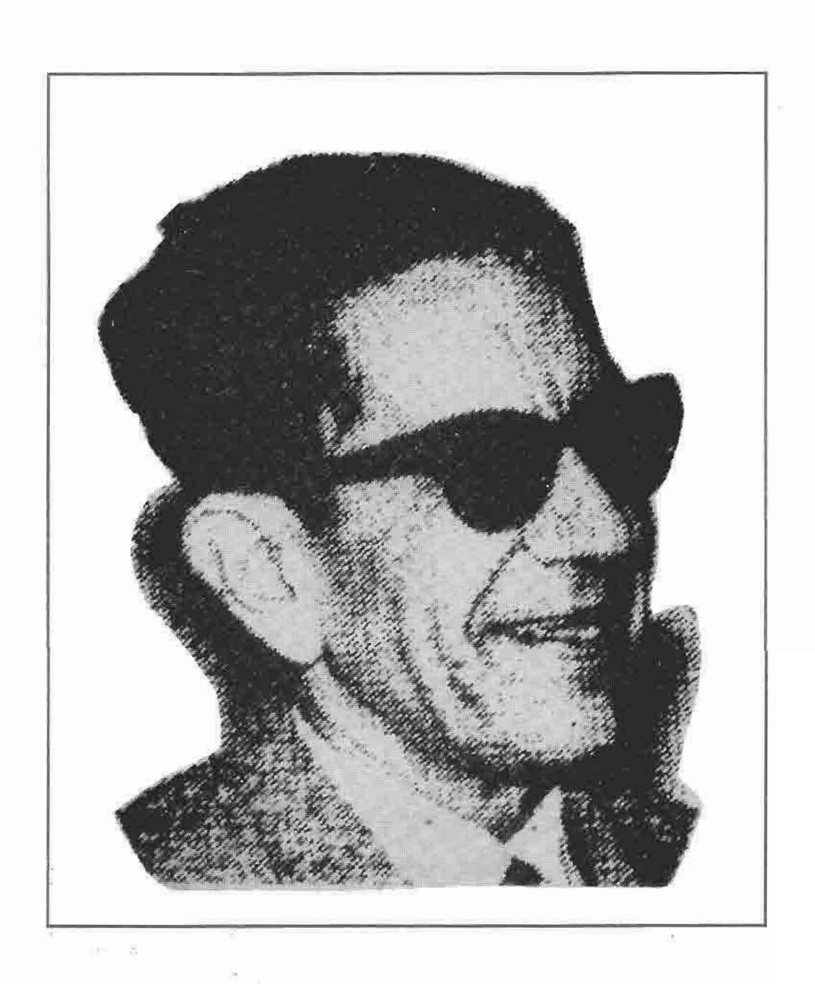
عبدالله القصيمي

لئلا يعود هارون الرشيد



منشورات الجمل

عبدا لله بن علي القصيمي
(١٩٠٣-١٩٩٥)

أول رجل دين وهابي، من الرعيل الأول، نزع ثوبه الديني، بعد ممارسة طويلة في خدمة الدعوة الوهابية، وألف خلالها العديد من الكتب دفاعاً عن الحركة السلفية والنظام السعودي الناشيء. ثم وقف ناقداً وبشدةٍ مسار قادة الدعوة ومحذراً إياهم من التعصب الديني ومن الانغلاق والجمود ومدافعاً في نفس الوقت عن حقوق المرأة، فألف كتابه الرائع "هذه هي الأغلال" واضعاً بذلك حداً نهائياً لممارسته السابقة وطارقاً الطلاق الديمقراطي مع المؤسسة الدينية الوهابية والنظام، مما عرض نفسه الى لعنة النظام ورجال الدين منذ عام ١٩٤٦م والى اليوم. وبهذا تكون حياة الشيخ عبدا لله، حافلة وغنية، فقد مرت في مرحلتين.

المرحلة الأولى ١٩٠٣-١٩٤٥م: وهي المرحلة الممتدة من ميلاده وحتى تأليفه كتابه "هذه هي الأغلال"، ظهر فيها الشيخ عبدا لله، وهابياً بمعنى الكلمة، مدافعاً عن خط الدعوة ومعتقداً بكل أوهام الوهابيين حول "المهدي،

والدجـال.. الخ.. وألـف بعـض الكتـب يدافـع عـن هـذه المعتقـدات منهـا "الاحاديث النبوية وبيانها".

ولـد القصيمـي في منطقـة القصيـم وبهـا يتسـمى، فتلقـى العلـوم الدينيـة والعربية على يد رجال دين وهابيين، ثم انتقل الى الرياض ومنهـا الى الأحسـاء وهناك لازم الشيخ العالم عبدالعزيز بن بشر عـدة سنوات (١٩٢١-١٩٢٤). ويقال ان الشيخ بن بشر "قد تفرس شـراً بتلميـذه القصيمـي"[١]، لكونـه كـان يجادل ويعترض أحياناً، والجدل مكروه عند الوهابيين. ويظهر ان القصيمي سافر الى القاهرة في نهاية العشرينات للدراسة في الأزهر، وهنـاك كتـب العديـد مـن المقالات في الصحف المصرية دفاعاً عن الدعـوة السـلفية ورجالهـا، كمـا ألـف العديد من الكتب، نشير الى اهمها:

١- البروق النجدية في إكتساح الظلمات الدجوية ١٩٣١

٢- شيوخ الأزهر والريادة في الاسلام ١٩٣٢

٣- شعلات الأحاديث النبوية وبيانها ١٩٣٥

ومما ذكره في هذا الكتاب قائلاً: "يعتمد ذوي الاغراض والأهواء ممن قـل نصيبهم من المعرفة والانصاف، على القدح في الدعوة السلفية الـتي يقـوم علـى انمائها واجلالها ويدأب في نشرها وتوسيع نطاقها عاهل الجزيرة العربيـة جلالـة الملك عبدالعزيز ال سعود"[٢]،

- الثورة الوهابية ١٩٣٦

[١] عبدا لله البسام "علماء نجد" الجزء الثاني.

[٢] معجم الادباء الكتاب.

- الصراع بين الاسلام والوثنية ١٩٣٧

- كيف ذل المسلمين؟ ١٩٤٠

المرحلة الثانيـة: وتبـدأ منـذ نهاية الحـرب العالميـة الثانيـة وحتـى وفاتـه، وبالتحديد منذ نشر كتابه الرائع القيم "هذه هي الاغلال" عـام ١٩٤٦، معلنا القطيعة النهائية بين الشيخ القصيبي وبين المؤسسـة الدينيـة والنظـام السـعودي. ومما ذكره في هذا الكتاب قوله: ان الروح الدينية كثيراً مـا تكـون سـلبية تجـاه الحيـاة وعطـلاً في أصحابهـا إن لم تشـايعها روح متوثبـة مـن الماديـة الواقعيـة الصارمة ومن التربية العالية وفي الحق انهم قليلـون جـداً، - ان لم يكونـوا غـير موجودين - اولئك الذين استطاعوا ان يجمعـوا بـين التديـن وبـين الابـداع في الحياة والنهوض بها. ولهـذا فانـه ليكـاد البـاحث يعجـز ان يجـد متدينـاً حرفيـاً استطاع ان يكون في الحياة شيئاً مذكـوراً، وان يتقـدم بهـا ويعطيهـا مـا ليـس عندها. ونجد كل الذين صنعوا الحياة وصنعـوا لهـا العلـوم والاسـاليب المبتكـرة العظيمة هم من أولئك الموصوفين بالانحراف عن الدين وبالتحلل منه. والعيـب بلا ريب عندنا، ليس عيب الدين ولكنه عيب المتدين العاجز عـن التوفيـق بينـه وبين مطالب الحياة، فطبيعة المتدين غالباً، طبيعة فاترة، فـاقدة للحـرارة المولـدة للحركة والمولدة للابداع ومن ثمة فانك غير واجد أعجز ولا أهون مـن هـؤلاء الذين يربطون مصيرهم بالجمعيات الدينية".

ومنذ الخمسينات وحتى نهاية السبعينات، ألف الاستاذ القصيمـي، كتبـه العديدة والضخمة ذات البعد السـاخط علـى العـالم ككـل ولا تخلـو مـن بعـد إلحادي واضح وساخر بمرارة من الاله والكائنات، وقد رد عليـه قـاضي قضـاة

www.ithar.com

المنطقة الشمالية الشيخ ابراهيم السويج بكتاب سماه "بيان الهدى من الظلال في الرد على صاحب الاغلال" وكان رداً ضعيفاً وتبريرياً ولا يخلو من الطعن الشخصي. ثم حرك النظام أحد أقلامه في لبنان "صلاح الدين المنجد"، فألف كتيباً سماه "دراسة عن القصيمي" صدر في بيروت عام ١٩٧٢م.

وقد لاقت كتب القصيمي رواجاً كثيراً في لبنان ومصر، وأخذ الكثير من الشباب في الجزيرة يطالع بعض كتبه، وهي وان كانت بعيدة عن نقد الاوضاع في السعودية، الا ان فيها الشجاعة لتعرية الفكر الديني والمستفيدين منه. ومن أهم تأليفاته التي صدرت هي:

١- العالم ليس عقلاً ١٩٦٤

٢- أيها العقل، من رآك؟ ١٩٦٤

٣- عاشق لعار التاريخ ١٩٦٥

٤- كبرياء التاريخ في مأزق ١٩٦٦

٥- هذا الكون ما ضميره؟ ١٩٦٦

٦- صحراء بلا أبعاد

٧- الانسان يعصي لهذا يصنع الحضارات

٨- فرعون يكتب سفر الخروج

٩- نقد كتاب "حياة محمد"

١٠- العرب ظاهرة صوتية ١٩٧٧

١١- الكون يحاكم الاله

١٢- أيها العار المجد لك

وبعد مقتل الملك فيصل عام ١٩٧٥ صدر عفو عن جميع المعتقلين السياسيين وعن الهاربين في الخارج، غادر القصيمي متجهاً الى الكويت، وظل هناك عدة سنوات ثم دخل البلد في نهاية السبعينات وعمره حوالي الثمانون عاماً، بعد ان قضى اكثر من أربعين عاماً خارج بلده. و لم نسمع عنه شيئاً منذ دخوله الى المملكة. وقد توفي عام ١٩٩٥ وعمره حوالي تسعين عاماً.

أنور عبدا لله

www.ithar.com

لئلا يعود هارون الرشيد

١

لأني مريض بالقدرة الأليمة على التحديق في الأشياء وقراءتها قراءة مُسائِلة مراجعة مفسرة، كان تحديقي في الكاتب العربي والانسان العربي، وقراءتي لهما تحديقا وقراءة فيهما كل المساءلة والاصرار والمراجعة والتفسير والحساسية الباهظة التعذيب. كان هذا يعني الرؤية بلا زمان، ولا صورة... كان يعني رؤية الماضي كرؤية الحاضر، ورؤية المستقبل كرؤية الحاضر والماضي.

كان ذلك يعني رؤية الشيء مشهداً واحداً: رؤيته محتملاً ومتخيلا كرؤيته مرئياً، رؤيته منطقاً كرؤيته مشاهدة، رؤيته في يومه مثل رؤيته في أمسه، في غده، في أبده. رؤيته بلا أزمان، بلا أبعاد، بلا صور، بلا مواقف مختلفة، بلا مفاجآت.

ولأني مريض بالتحديق في الأشياء وقراءتها بالاحساس الأليم والديمومة والتفسير والمراجعة والمعاناة، أصبحت أرى الإنسان العربي بلا قبل ولا بعد، أراه قبلاً كبعد، أراه بعداً كقبل، أراه في أبنائه وأحفاده كما أراه في نفسه، كما أراه في آبائه وأجداده. أراه في احتمالاته التي سوف تصبح واقعاً كما اراه في واقعه الذي لا يراه هو واقعا. أراه واقعاً واقعا، واراه غير واقع واقعاً، أراه في كل امتداداته

امتداداً واحداً، وفي كل صيغه صيغة واحدة، وفي كل صوره صورة واحدة. أراه وأراه ودائما أراه، لأني مريض بالرؤية.

٢

انك أحيانا لمحتاج إلى ان تكون وحشا في قسوتك، إلى ان تصبح عيناك حجرا، وحواسك افتراساً وذنوبا، لكي تستطيع ان ترى انسانا أو مجتمعاً كما هو بكل تشوهاته وآلامه وعاهاته وذنوبه وفضائحه وهمومه.

وانك لمحتاج إلى ان تخرج من كل حدود الإنسان، من كل ماضي الإنسان، من احتمالات الاحتشام والاغضاء والاستحياء والاشمئزاز والعطف والبكاء والرثاء، لكي تستطيع ان ترى الإنسان العربي يمارس فضائح أيامه الستة، أو تقتنع بانه قد مارسها، أيوجد إنسان بكل هذا الضعف؟ أيوجد قوم بكل هذا الضعف؟ لهم كل هذه الامكانيات والظروف والثروات والدعاوي؟ لهم كل هذه المحاباة والدلال العالميين؟ أيوجد من يستطيع ان يحدق فيهم، في وجوههم؟

واننا أحياناً لنجبن أو نرتجف أو نعاني أو نرفض ان نرى بأبصارنا أو نقتنع بعقولنا، بقدر ما نجبن أو نرتجف أو نعاني أو نرفض ان نجرح أو نقتل بادوات قتالنا المختلفة.

ان القدرة على الرؤية والاقتناع قد تكون تعبيراً من تعبيرات القدرة على الهجاء، والتحقير والتشويه والقتال والتعذيب. قد تكون

جريئا على ان ترى وتقتنع لانك جريء على ان تهجو وتحقّر وتشوّه وتضرب. وقد تعجز عن هذا لانك عاجز عن ذلك. قد تعجز عن الرؤية والاقتناع لانك رحيم أو مؤدب أو مجامل أو صديق أو محب أو مريض بالاستحياء والاشمئزاز.

٣

ان الحكم المستبد الطاغي لا يقتل الموهبة ولا يضعفها. انه لا يستطيع ذلك ولا يريده. انه يحشد الموهبة ويسخّرها ويمتلكها ويسيّرها لحساباته التي لا بدّ ان تكون طاغية مستبدة. ان الحاكم الطاغية يحتاج إلى القوة والى الانتصارات والى الطوابير والمهرجانات والاعلانات الباذخة، والى الدوي، والى القاء كل السحر والقهر والبهر والذعر في كل العيون والمشاعر. ولا يوجد من يصنع له كل ذلك سوى الموهبة، موهبة المجتمع الذي يقف فوقه، سوى المواهب الضخمة المتنوعة المشحوذة المستنفرة.

ان الطاغية بلا مجتمع موهوب فارس بلا جواد ولا سلاح. انه ملابس فارس بلا فارس. انه عرس بلا طبول ولا مدعوين ولا زفاف ولا فتاة. انه حرب بلا جنود ولا سلاح ولا انتصارات. انه طغيان بلا طاغية. وطاغية بلا قدرة ولا ارهاب.

والموهبة لا ترفض ان تنمو وتتألق وتتعاظم تحت حكم الطغاة. انها لاتملك ان تكون شريفة أو نظيفة اوعفيفة. انها لا تستطيع ان

www.ithar.com

تغضب لنفسها أو ان تحترم نفسها. ان الموهبة لا تملك رفضا أو إباء. انها لا تتغذى بالفضيلة دائما. انها تتغذى بكل طعام، بكل ما يُعرض عليها. انها ليست قديسة.

والموهبة لا تتحول إلى زواج. انها أبداً إباحة، انها أبداً فسوق. ولعل افتتانها بالطغاة أعظم من افتتانها بالصالحين. لعلها لا تهب نفسها بحماسة وافتضاح مثلما تهبها للطغاة. انهم يهبونها من النشوة والجنون الممتع اكثر مما يهبها الصالحون. ان الطغيان افضل البيئات لافتضاح الموهبة، لاعطائها كل نفسها بلا شروط، بلا وقار بلا تقتير، بلا تأثم، بلا تقوى. ان الطغيان يتحوّل إلى افضل معشوق للموهبة، انه خدينها المفضل.

الطاغية الذي يحكم مجتمعا موهوبا يصبح طاغية موهوباً. أو يبدو كذلك، أو يفرض عليه ان يكون كذلك، أو هو خليق بان يكون كذلك. والطاغية الموهوب فوق المجتمع الموهوب هو أفضل الشروط لبناء اعظم قوة متفوقة تستطيع ان تحقق اسرع الانتصارات واكثرها بريقا ودوياً وتخويفا للاعداء والخصوم.

ان طريق التاريخ مملوء بالطغاة الذين بهروا العالم وقهروه وارهبوه بالقوة السريعة الرهيبة التي بنوها وحشدوها ثم أطلقوها على العالم، كأنما سرقوها من الجحيم لسرعتها وضخامتها ووحشيتها. كأنما صنعتها لهم الأبالسة أو الآلهة بكلمة "كن" التي كانت لغة الآلهة القديمة.

واذا وجد مجتمع عاجز وفوقه احد الطغاة، فالتفسير ان ذلك المجتمع لا يملك الموهبة. ولا يمكن ان يكون التفسير ان ذلك الطاغية قد سحب من المجتمع موهبته أو قتلها أو اضعفها أو اعتقلها أو نفاها، أو انه رفضها، أو انها رفضته عشيقاً لها أو صديقا أو سيداً أو مولى.

الموهبة لا ترفض الطاغية. الطاغية لا يرفض الموهبة. حوافز الرفض بينهما غير موجودة. القضية كلها ـ أي في حسابه هو لا في حسابها ـ هي كيف تكون العلاقات بينهما. يريدها جداً، ويريدها أكثر مما يريدها سواه. لكن يريدها امتلاكاً وسخرة، وعرضا لجنونه وكبريائه. الطاغية لا يستطيع ان يكون مجنوناً مثالياً. لا يستطيع ان يكون مجنونا يرضى عن جنونه ما لم يكن فوق مجتمع يملك مواهب عظيمة، متنوعة، على عديد من الاتجاهات والاساليب. المواهب القوية المتنوعة هي الثمن، هي الجزاء، هي التفسير، هي الشروط لعظمة الطاغية، لقوته، لدويّه.

٤

ضعف الإنسان العربي إذن، ذلك الضعف الرهيب الذي كانت المواجهة العربية اليهودية أقسى فاضح له، لا يمكن ان يعني ان العرب محكومون بالطغاة المستبدين، وان هؤلاء الطغاة المستبدين شربوا موهبتهم، وضعوها في احد المعتقلات النائية الكثيرة المحروسة بشراسة

بكل الكلاب البوليسية، بكل أدوات واجهزة الافتراس والقمع والقهر.

لو ان العرب يملكون موهبة، لصنع طغاتهم من موهبتهم قوة وانتصارات وابداعا، كما صنع آخرون من مواهب شعوبهم.

لماذا أعطت شعوب اخرى يحكمها طغاة آخرون ألمع الابداعات والانتصارات وأضخم الاقتدار في مواجهة القوة بالقوة؟ ألأنها تملك موهبة، أم لأن طغاتها يملكون موهبة، ام لأنها وطغاتها يملكون موهبة؟ ان كان الامر هذا أو هذا أو هذا فلماذا لم يكن العرب هذا أو هذا أو هذا. واذا كان الطغيان العربي هو الذي قتل الموهبة العربية، أو منع ان تولد في العرب موهبة، فلماذا لم يقتل طغيان الآخرين موهبتهم أو يمنع ان تُخلق فيهم موهبة؟ واذا كان الطغيان في الآخرين لم يمنع ان تكون لهم موهبة أو ان تتحول موهبتهم إلى أروع الاساليب في تعبيرها عن نفسها فلماذا منع الطغيان عند العرب ان تكون لهم موهبة أو ان تعبر عن نفسها؟ كيف يكون الشيء مانعا عند العرب ولا يكون مانعاً عند غيرهم؟ كيف يكون الشيء سبباً من أسباب الابداع والتفوق عند غير العرب ثم يكون عند العرب سببا من أسباب العجز والهوان والخمول؟

العبقرية تصنع ذاتها تحت الشيء ونقيضه. تهب نفسها للحرية كما تهبا للدكتاتورية. لهذا توجد تحت هذه وهذه، كما تُفقد تحت هذه وهذه.

لقد عجز الإنسان العربي عن اعطاء العبقرية محكوما بالدكتاتورية ومحكوما بصيغة الحرية. لقد تساوى في عجزه تحت هذه وهذه، و لم يكن تحت احداهما أكثر من نفسه تحت الاخرى. كان عادلاً في توزيع نفسه واعطاء نفسه وفي عجزه كيفما كانت اساليب الحكم حوله، وكيفما كانت صيغة النظام الذي يحكمه، ومذهب الحاكم الذي يهتف له وأخلاقه وأفكاره. لقد جاء الإنسان العربي تحت كل حكامه ومذاهبه ونظمه وبلدانه وشعاراته صيغة واحدة، في انهياره وغبائه حين المواجهة العربية اليهودية. بل ان المراحل التاريخية المختلفة لهذه المواجهة لم تصنع منه انسانا مختلفا ولا مواقف مختلفة أو متفاوتة. كأنه عاجز أن يتخطى طوره الواحد. كأنه غير قابل ان تكون له اكثر من صيغة ضعف واحدة. كأن ضعفه لا يقبل التغيير أو التعدد. ولعله ضعف لا يقبل التغيّر والتعدد لأنه لا يقبل الحركة. ولعله لا يقبل الحركة لشدة ضعفه. لعلَّ الحركة نوع من القوة التي لا يستطيعها ضعف الإنسان العربي.

لقد جاء الإنسان العربي في كل أزيائه وتحت كل شعاراته صيغة واحدة ومستوى واحداً حين وقعت المواجهة العربية اليهودية. جاء كأنه شيء لا يتغير، لا يتفاوت، لا يتعدد. جاء كذلك لأنه جاء نموذج ذاته، نموذج موهبته، نموذج عبقريته. انه لم يجيء نموذج مذاهبه أو نظمه أو شعاراته أو ظروفه أو الظروف التي حوله. لم يجيء نموذج الأزمان المختلفة أو المتباعدة أو المتغيرة التي تقتحمه. لم يجيء نموذج

السلاح الذي يحمله أو الامكانات التي يعيشها أو العدو الذي يواجهه.

لم يجيء نموذج أي شيء آخر. لقد جاء نموذج ذاته وحسب. نموذج الإنسان العربي.

حتى رؤيته لنفسه، لخصمه، للعالم، للأشياء حوله، للأشياء بعيدة عنه، بعيدا عنها، لم تتغير. لم تختلف. لم تتفاوت.

الإنسان العربي لا يتغيّر. عار ان يتغير. ذنب ان يتغير. عقوق للأرباب والآباء والاوطان ان يتغير. لهذا لم يتغيّر.

٥

هل يستطيع شيء، هل يستطيع أي شيء، مهما عظم، ان يكون كفارة أو اعتذاراً عنك أيتها المواجهة العربية الاسرائيلية، أيتها الوحش المبتلع لكبرياء الإنسان العربي، المذل لقبور آبائه.

ليت القدر كان رحيماً، ليته كان نبيلاً، ليته كان مجاملاً أو حيياً. ليت صفة طيبة فيه قد منعته من أن يصنعك ايتها المواجهة العربية الاسرائيلية، من ان يهيئك لتفضحي الإنسان العربي هذا الفضح الذي لم يفضحه احد في التاريخ، في كل التاريخ.

ليت القدر أخذ منا كل تاريخنا، كل آبائنا، كل زعمائنا وقادتنا ومعلمينا وقديسينا، كل شعرائنا، كل تعاليمنا ومنابرنا، كل فصاحتنا وفصحائنا..

ليته اخذ منا كل شمسنا، كل ما تحابينا به من سخاء في الضياء والحرارة.

ليته أخذ منا كل نفطنا، ليته أخذ منا هذا الشيطان الملاك، هذا النبيّ الساحر، هذا الفاضح لضعفنا، هذا الساتر لضعفنا، هذا المعاقب لنا، هذا الغافر لنا، هذا الموهبة الارضية، هذا التغيير لموهبتنا الانسانية، هذا المجد لارضنا، العار لأنساننا، هذا النفط، هذا النفط الذي جاء أكبر من انساننا.

ليته أخذ منا كل نفطنا، هذا الذكي الغبي، هذا القوة الضعف، هذا المديح الهجاء، هذا الفقر الرخاء، هذا الاسراف في الطبيعة، التقتير في الإنسان، هذا النقد لمنطق الآلهة، الثناء على منطق العبث، هذا المحاباة لحياتنا، التحدي لذكائنا، هذا الذي تحوّل إلى خطيئة من أكبر خطايا الارباب والطبيعة والقدر لبلادة كينونته وسفاهة انحيازه وانحطاطه في اختياره لوطنه، لقوميته، لأهله، لأصدقائه.

ليت القدر أخذ منا كل نفطنا، هذا العدو الصديق، هذا المهذب الوقح، هذا الذي ألقى بالانسان العربي تحت أقوى الأضواء ثم لم يجامله بشيء من الموهبة، هذا الذي وضع الإنسان العربي تحت كل

العيون ثم لم يهبه شيئاً من روعة النظر، شيئا من احترام العيون، شيئا من انبهار العيون.

ليت القدر أخذ منا كل ذلك، ليته أخذ منا كل شيء لكي يرفق بنا، لكي يكون كل رفقه بنا ألا يهيء لهذه المواجهات بيننا وبين هذا العدو الذي وضع كل أمجاد تاريخنا، وكل عبقرية قبورنا، وكل تعاليم أربابنا، وكل احتمالات مستقبلنا، وكل امكانات قدرتنا، في محنة، في ريب، في خطر.

٦

يريد الإله ان يكون واحداً. يريد أن تكون له وحده الوحدانية. لهذا يريد التعدد في كل شيء، ليكون وحده المتفرد. حرم كل ما خلق ومن خلق من الوحدانية ليخص بها ذاته. وهل كان بهذا التخصيص يحابي نفسه ام يحمل عليها؟

هل الوحدانية محاباة ام عقاب، هل هي تحمل للواجب الصعب، أم تفرد بالمجد السهل؟ لو كان لي ان اختار للإله لاخترت ان يجرب نفسه باسلوب آخر، باسلوب اكثر محاباة للنفس.

الإله لا يمارس الجنس. لا ينام ولا يأكل. واحد متفرد. متفرد بالمسؤولية الكونية، وهذه احدى تفرداته الصعبة. هذه الكينونة ــ أي كونه لا يمارس الجنس ولا النوم ولا التغذي، وكونه متفرداً ــ لا بدّ ان تصوغ مزاجه النفسي صياغة حادة أليمة.

هذه الكينونة لا بدّ ــ فيما أُقدر ــ ان تصوغ نفسه واخلاقه ورؤيته وعزاءه ونشوته صياغة تتغذى بالآلام والتشوهات، بالدموع والاحزان، بالمشكلات والتناقضات والحروب. بكل الشرور والاخطاء والعاهات التي تُعانَى وتُمارَس أمامه، في عينيه، داخل أعصابه بضجيج، بأهوال. لا بدّ ــ فيما أرى ــ ان يجد في كل ذلك عزاءً وراحة وتعويضاً عن معاناته الخاصة، عن همومه، عن توتراته، عن حرمانه الابدي.

لماذا كل هذه الألم والاحزان والشرور في الكون؟ لماذا يريدها، لماذا يصوغها؟ كيف يطيق رؤيتها، كيف يطيق الإحساس بها؟ هل هي كمال ام عزاء؟ هل يفعلها أو يسمح بها بحثاً عن العزاء ام عن الكمال؟ إذا لم تكن كمالاً، بحثا عن الكمال، فلا بدّ أن تكون عزاءً، بحثا عن العزاء، لا بدّ ان تكون عزاءً أو كمالاً، أو أن تكون هذا وهذا.

هل يحتمل أن تكون ــ أي هذه الشرور والآلام في الكون والعالم ــ كمالاً أو بحثا عن الكمال إذن لا بدّ أن تكون عزاءً، وحسب، للإله.

الإله يتعزى بالآلام والدموع والاحزان لأنه يمارس ذاته، يمارس وجوده، يمارس ضروراته ممارسة هي العذاب، هي الجحيم الذي لا يطاق عذابه، هي الجحيم الذي لا شبيه لعذابه. انه متفرد، في أشياء كثيرة صعبة. بالخلق، بالمسؤولية الكونية. انه لا يمارس الجنس ولا

النوم ولا الطعام. يعاني كل المعاناة، يتعذب كل العذاب. ما من أحد يتغذّى ويتعزّى بالآلام والشرور مثلما يتعزى ويتغذى بها الإله.

لو كنت أختار للإله أو اختار عليه لأخترت ان يشفي من هذه المعاناة، من هذا الأسلوب. سأختار له حينئذٍ لكي يتغير مزاجه ان يمارس الجنس والطعام والنوم ويتخلي عن الوحدانية. وسوف انتظر له ان يتغيّر مزاجه النفسي، أن تتغير أخلاقه ورؤيته ومنطقه وحكمته وارادته. سوف انتظر منه حينئذٍ ألاّ يجد في تشويه الطفل والشيخ وتعذيبهما غذاءً وعزاءً وحكمة ومنطقا وإحساناً إليهما، ورحمة بالغة بهما تستحق منهما طلب المزيد والدوام، تستحق منهما كل الشكر والايمان بالمحسن الأعظم.

سأنتظر حينئذٍ ان تكون له عينان أكثر ضعفاً وحياءً ومجاملة للمعذبين والمحزونين وأعجز عن رؤية الدموع والأحزان والعاهات، وان يكون له سمع أقل انتشاءً لسماع الآهات والضراعات المرفوضة، وان يكون له ضمير أقل فسوقاً من ضمير الزلزال والوباء والموت والشيخوخة والحرب.

انتظر منه حينئذٍ ان تكون له حواس ومشاعر إنسان تقتله لو رأته يتعامل بمشاعر وحواس الإله فيه.

انتظر له حينئذٍ صياغة جديدة مثل الإله. لا شيء متروك دون أية محاولات لتجديد صياغته مثل الإله، ولا شيء مثل الإله يحتاج إلى

صياغة جديدة، إلى تغيير صياغته، إلى تغيير صياغة الإله فيه بأية صياغة أخرى.

ان تصوراتك لن تصطدم بشيء مثلما تصطدم حينما تتصور كائناً كبيرا رهيبا بلا شبيه. كائناً وحداني الذات، وحداني الصفات، وحداني المكان، وحداني السلوك والقدرة والمسؤولية والشذوذ. كائنا بعيدا عن هذا العالم، وعنك، متفردا في مكانه وفي أخلاقه وممارساته، متجهما عابساً أبداً. لا يضحك ولا يغنّي ولا يمزح. لا يحب ولا يصادق ولا يعشق. لا يتزوج ولا ينام ولا يأكل ولا يشرب. ليس له أولاد ولا جلساء ولا مستشارون. لا يقبل النقد ولا الخلاف. لا يقول الشعر ولا يسر بسماعه. لا يراه أحد ولا يسمعه أحد. لا يزور ولا يُزار. لا يسافر، ولا يموت ولا يشيخ. لا يكبر ولا يصغر ولا يتغير. لا يزيد ولا ينقص. لا يضعف ولا يقوى. أزلي، أبدي، بصيغة واحدة. لا يفارق ولا يستطيع ان يفارق، لا يعرف ان يفارق، ولا كيف يفارق.

يسمع ويرى ويمارس كل الهموم والدموع والآهات والعاهات والتضرعات والصلوات دون ان يحزن أو يبكي أو يستجيب أو ينتحر حياءً ورحمة أو حبّاً أو شهامة أو عدلاً. تسقط في عينيه كل الآلام والتشوهات دون ان تطرف عيناه، دون أن يكره أو يلعن عينيه أو ما يسقط في عينيه.

لا يسأم ولا يبغض ذاته أو ممارساته أو حياته أو ما حوله. لا يغير من اسلوبه، ولا يجدد في اسلوبه. لا يملّ من التكرار. لا ينكر ثقة

www.ithar.com

الناس به وتأميلهم فيه، لا ينكر غباءهم وضعفهم وفي معاملاتهم له، في صبرهم عليه، في فهمهم إياه. لا يحاول ان يجامل أية ثقة به، أي أمل فيه. يريد الثناء كل الثناء وهو لا يفعل شيئا يستحق الثناء، أقل الثناء. يحرم النقد وهو يفعل ما يوجب النقد، كل ما يوجب النقد.

ان تصوراتك لن تصطدم بشيء مثلما تصطدم بتصورك لمثل هذا الكائن الرهيب. ما أقوى تصورات البشر. كيف استطاعت ان تتصور مثل هذا. ما أقوى البشر، ما أضعفهم. ما أذكاهم، ما أغباهم. ما أقدرهم على التنازل عن الكرامة.

هذا الكائن هل تقبل ان تكونه، أن تراه، ان تغفر له؟ هل تحسده ام ترثي له؟ هل تلعنه ام ترق له؟ أيكما الظالم: انت حينما تصورته هكذا، ام هو حينما جعلك تتصوره هكذا؟

٧

إذا أصبحت الدول العربية دولة واحدة أصبحت دولة كبرى. نعم كبرى تملك امكانيات ومزايا كبرى.

إذن لقد وقع العالم العربي في المصيدة. وقع في الغواية الباهظة. أصبح دولة كبرى. لها طموح الدولة الكبرى وكل أحاسيسها وكل منافساتها وتحدياتها ومغامراتها وكبريائها واستعراضاتها، وعليها كل تبعاتها وإلتزاماتها وهمومها. نعم لقد أصبح العرب دولة واحدة، دولة واحدة كبرى. إذن لا بدّ ان يكون لدولتهم الكبرى قيصرها

العظيم. لا بدّ أن يكون لها وحشها الهائل. وهل يكون قيصر عظيم بلا غرور وكبرياء، بلا أظفار وأنياب، بلا طموح ومنافسات وتحديات واستعراضات ومغامرات؟ القيصر العظيم، دون هذه الشرور، كالمرأة الجميلة المغرورة بلا مرآة، بلا نظارة، بلا عيون متطلعة متلهفة، بلا زينة. كالمرأة الخاطئة بلا وجه، بلا أعضاء داخلية، بلا خاطئين، بلا خطيئة، بلا مكان للخطيئة.

القيصر الكبير الفادح هو العبقرية المحتومة التي لا بدّ ان تفرزها موهبة الدولة العربية الواحدة. الدولة العربية الكبرى الواحدة دون قيصر كبير فادح، لو كان ممكناً حدوث مثل هذا لا تعني في حساب العرب وحساب زعمائهم معنى الدولة الواحدة الكبرى. انهم لن يقتنعوا حينئذٍ بانها قد وجدت. لن يقتنعوا بانه وجدت دولة عربية كبرى واحدة ما لم يكن فوقها قيصر واحد فادح. وجود هذا القيصر فوق الدولة العربية الواحدة هو الذي يستطيع ان يقنع العرب بان دولتهم الكبرى الواحدة قد وجدت وبان لوجودها معنى ورسالة، وهو الذي يجعل لبقائها معنى ورسالة، بل هو الذي يجعل بقاءها ممكناً.

العرب لا يتطلعون إلى الدولة العربية الواحدة إلاّ لأنهم يتطلعون إلى القيصر الواحد. ان وحدانية الدولة في حسابهم من أجل وحدانية القيصر. ان وحدانية الحاكم أو الزعيم أو الخليفة أو الإمام أو النبيّ أو الإله هي التي تعني كل المعنى، وكل القيمة المطلقة في المنطق العربي. كانت القضية لدى العرب دائما هي الاصرار على وحدانية الإله

ووحدانية النبيّ والامـام والخليفـة، وفهـم هـذه الوحدانيـة والقتـال في سبيلها. و لم تكـن القضيـة لديهـم وحـدة الكـون أو وحـدة النـاس أو وحـدة الأديـان والشـرائع والنصـوص، أو وحـدة العـالم أو وحـدة الأوطان أو وحدة المواطنين. بل لم تكن القضية لديهـم وحـدة النبـوّة إذا كان المعنى وحدة النبيّ. فوحدة النبيّ هي القضية عندهم لا وحـدة النبوّة أو النبوات.

كان الخروج على وحدانية الخليفة أو الإمام هـو الزندقـة الـتي لا غفـران لهـا في ديـن العـرب، ووطنيتهـم وتفكـيرهم وتعـاليمهم. انـه كالخروج على وحدانية الإله، بل انهم ليعاملون ذلك الخروج بقسـوة لا يعـاملون بمثلهـا الخـروج علـى وحدانيـة الإلـه. ان الخـروج علـى وحدانية الإله قد يُغفـر، أمـا الخـروج علـى وحدانيـة الإمـام والخليفـة فغفرانـه ذنـب لا يمكـن غفرانـه. انـك لـو اعطيـت العـرب وحدانيـة الشعوب العربية و لم تعطهم وحدانية الحاكم أو الزعيـم لكنـت كمـن اعطى المؤمنين وحدانية الناس أو وحدانية الأديـان أو وحدانيـة العـالم والكون و لم يعطهم وحداية الإله.

٨

يا دولة العرب الواحدة الكبرى، إني أخاف مجيئك لانـي أخـاف مجيء هارون الرشيد الجديد.

اني أخاف مجيء هارون الرشيد الجديد لأني قـرأت عـن هـارون الرشـيد القديـم. كـان يقـاتل بآبـائي ويقـاتلهم بالسـيوف والرمـاح والسهام والنبـال. كـان ينفـق قـوت آبـائي علـى الجـواري والشـعراء والمغنين. كان يعرض ذاته وهيبته ووحشيته وكبريـاءه فـوق المنـبر وفي المسـجد وفي مواكبـه البدويـة المنطلقـة مـن القصـر إلى المصلّـى، ومـن المصلّى إلى القصر، ومن هذا القصر إلى ذلك القصر، ومن مخدع هـذه الجارية إلى مخدع الجارية المنافسة الأخرى. كان يحـارب ذكـاء آبـائي وحريـاتهم بالمشـايخ وبالآيـات والأحـاديث، وبالأنبيـاء، وبالسـلف، وبالقبور.

قرأت عـن هـارون الرشـيد القديـم هـذا، فـامتلأت غضبـاً علـى التأريخ وخوفا منه، واحتقارا له. تعذبت حزناً على آبائي ورثاءً لهـم. صرت أرتجف مـن التفكـير في الألتفـات إليهـم أو القـراءة والتحـدث عنهم أو الإنتساب إليهم لأني قرأت عن هارون الرشيد القديم هذا.

اصبحـت اخـاف بـلا حـدود ان يجـيء هـارون الرشـيد الجديـد بمجيء الدولة العربية الواحدة الكبرى. ان يجيء هارون الرشيد الـذي سوف يجيء ــ إذا جاء ــ زاحفـاً موكبـه البـدوي، زاحفـةً خصائصـه وأخلاقـه البدويـة فـوق كرامـة أبنـائي وشـرفهم وذكـائهم ورضـاهم وأمنهـم ورفضهـم وشـجاعتهم وكـل حيـاتهم ـــ تذلهـم وتقهرهـم وتسرقهم وترهبهم وتضللهـم وتسـوقهم، وتكـذب عليهـم وتكـذب بهم، وتقامر بهـم وتقـامر عليهـم ـــ بكـل مـا في الحضـارة مـن قـوة وخداع واغراء وبريق وبراعـات وضجيـج وعطـاء ومحابـاة للسـخفاء

والسفهاء ولكل الطغاة والمقامرين ولكل الفاسقين بالمنابر والكلمات وبالشعارات والمذاهب.

أصبحت اخاف بلا حدود ان يجيء هارون الرشيد الجديد الذي لن يقاتل بأبنائي، لن يقاتل أبنائي بالسيوف والرماح والسهام والنبال كما كان هارون الرشيد القديم يقاتل آبائي ويقاتل بهم، بل بكل أسلحة الحضارة، والذي لن ينفق خبز أبنائي ورضاهم على الجواري والمغنين والشعراء كما كان هارون الرشيد القديم يفعل بآبائي، بل على المغامرات والمؤامرات وعلى الجيوش التي تقاتل عدواً، وإذا قاتلته أو قتلها فلن تنتصر. وعلى أجهزة المخابرات والمباحث والتجسس، وعلى الرشوة لشراء الحكام، لشراء المذاهب والمواقف، لبيع المواقف والمذاهب، انها الرشوة التي لن تستطيع كل كبرياء دولة هارون الرشيد القديم ان تملكها أو ان ترشو بها.

أصبحت أخاف ان يجيء هارون الرشيد الجديد الذي لن يشبع جوعه إلى العرض ان يعرض كبريائه وارهابه لذكاء وشجاعة أبنائي، ان يعرض ذلك في المسجد وفوق المنبر، وفي المسيرة من القصر إلى القصر، ومن الجارية إلى الجارية الأخرى، ومن الشراب إلى المصلّى، ومن المصلّى إلى الشراب كما كان هارون الرشيد القديم يفعل، بل ان يرقص فوق كل الأخطار والحماقات والآلام والمخاوف، ان يرقص لها، ان ترقص له، ان يحدو لها، ان تحدو له، ان يخطب عنها، أن يأمر بأن يخطب عنها، أن يعابث أظفارها وأنيابها، ان يضع يده في اشداقها، دون أن يكون قادرا ودون ان يكون صادقا ودون ان يكون

مريداً لما يفعل، لمعنى ما يفعل. انه الكائن الأحمق الذي لا يستطيع ان يكفّ عن التحرّش بالخطر ثم لا يستطيع مقاومته أو يريد مقاومته حينما يثيره تحرّشه به.

أصبحت أخاف ان يجيء هارون الرشيد الجديد الذي لن يحارب ذكاء أبنائي وحرياتهم بالمشايخ وبالآيات وبالأحاديث، ولا بالأنبياء والسلف الصالح، ولا بالقبور كما كان هارون الرشيد القديم يفعل بآبائي، بل بكل موهبة الحضارة وفنونها وذكائها وإغراءاتها ومذاهبها وغواياتها الهائلة.

٩

ليس الناس هم الذين أقاموا الدول والامبراطوريات الكبرى، الذين فكروا فيها أو ارادوها، الذين ساقوا انفسهم إلى السجون والمعتقلات والحروب، ليموتوا قتلاً وتشويهاً، الذين فكروا في تشييد السجون والمعتقلات والمعابد، الذين أرادوا تشييدها أو اقتنعوا بمزاياها الوطنية أو الدينية أو الاخلاقية، الذين ارادوها أو ابتكروها ليقهروا بها حياتهم وذكائهم وحرياتهم.

ليس الناس هم الذين اقاموا الدول والامبراطوريات الكبرى، الذين أرادوها واقتنعوا بمزاياها. ان القياصرة والاباطرة، وكل الطامحين والحاشدين للبشر هم الذين اغتلموا باقامة الامبراطوريات الكبرى، ثم ذهبوا يسوقون الناس بكل أساليب الموت والتعذيب لكي يقيموها،

لكي يتعذبوا بها اذا قامت. الناس يتعذبون بتسخيرهم لإقامة الدول والامبراطوريات الكبرى، ثم يتعذبون بها بعد ان يقيموها ويضعوها بان يحكم عليهم بدخولهم إليها أو بأن يقتلوا بها في الحروب وفي غيرها من اساليب القتل المختلفة.

الطغاة يجدون شهوة في ان يكونوا فوق امبراطوريات ودول كبرى كما يجد صاحب المال شهوة في ان يكون ماله كثيراً، وصاحب القطعان شهوة في ان تكون قطعانه كثيرة، وصاحب العبيد والجواري والمحظيات شهوة في ان يتعاظم عدد عبيده وجواريه ومحظياته. وكما يجد الطفل المدلل شهوة في ان يكون له اكبر العدد من اللُعب وان يتفوق على كل انداده واصحابه في عدد لعبه.

كان الطغاة يجدون دائما ضخامتهم وضخامة مجدهم من ضخامة الدولة التي يحكمون. انهم يشعرون انهم كبار بقدر ما تكون الدولة التي يقفون فوق كرامتها كبيرة. يقيسون حدود مجدهم بحدود دولتهم. يشعرون بالضآلة وبالصغر اذا كانت دولتهم صغيرة مهما كانوا مغرورين متكبرين. لا يرون أنفسهم خارج دولتهم. لا يرون دولتهم خارج ذواتهم.

ان قصة الدولة الكبيرة أو الامبراطوية الكبيرة لم تكن قصة الناس أو فكرتهم أو أملهم. كانت دائما قصة رجال يريدون ان يكونوا كبارا أو طغاة على حساب الناس أو بتصاغر الناس، لا من أجل الناس.

الناس لم يفهموا في أي وقت ان ضخامة الدولة تعني ضخامتهم. لم يفهموا هذا و لم يفكروا فيه في أي وقت من الاوقات، وجدوا دائما انهم يتحولون إلى حطب يشعله الطغاة لكي يصنعوا من رمادهم دولاً وامبراطوريات كبرى، لكي يتعذبوا بدفع أثمانها وتكاليفها ثم بدفع أثمان وتكاليف المحافظة عليها، ثم بدفع أثمان وتكاليف طموحها وطموح طغاتها.

ان تشييد الامبراطوريات والدول الكبرى هو التعبير البذيء الباهظ عن طموح الطغاة والغزاة، انه اسلوب عدواني، انه اسلوب من اساليب القنص، انك ستشعر بنشوة الانتصار والتفوق كلما كان صيدك أكثر.

ان الاعداد الكبيرة في الدولة أو الامبراطورية تتحول إلى اعداد مساوية في حسابات الثورة والقوة والمجد في مشاعر الطغاة والغزاة. انهم يشعرون ان تعداد الدولة أو الامبراطورية ليس تعداداً لها ولكنه تعداد لذواتهم، وان ضخامتها ليست ضخامة لها ولكنها ضخامة لكبريائهم، وان اتساعها ليس اتساعاً لها، ولكنه اتساع لمغامراتهم وتحدياتهم ومنافساتهم وطموحهم، وان دويها ليس محسوبا لها ولكنه محسوب لطاغيتها، وان اسمها ليس اسمها، بل اسم طاغيتها.

ان الدولة أو الامبراطورية الكبيرة معنى من معاني الامتلاك، من معاني الاسترقاق، من معاني البحث عن القطيع الكبير.

١٠

كان النفط احد أساليب عطف الطبيعة علينا، رثاء لضعفنا. انه دموع واحزان الطبيعة تذرفها علينا باسلوب هو افضل الاساليب في ذرف الدموع والاحزان. لقد حابت الطبيعة ضعفنا جداً، جداً، فذرفت علينا أغزر الدموع والاحزان. ثم حابتنا مرة اخرى لعنف ضعفنا فحولت دموعها واحزانها علينا إلى مادة اخرى، إلى مادة اعظم جداً من الدموع والاحزان. لقد حولت دموعها واحزانها علينا إلى نفط، فالنفط ليس إلا احزان ودموع الطبيعة عطفا علينا.

كان إذن عطف الطبيعة علينا عظيما جداً، وذكياً جداً، ونبيلاً جداً.

مبارك إذن انت يا ضعفنا... مبارك انت. كانت احدى عطاياك هذا النفط. هذا الجنون الطبيعي الضخم.. هذا الجنون الطيب المبارك. جُنت الطبيعة من أجلنا. جُنتْ من شدّة عطفها علينا. كذلك جنت دول كبرى كثيرة وافتضحت في عطفها علينا مثلما جُنَّ النفط، مثلما جُنت الطبيعة.

مبارك انت إذن ياضعفنا.

لكن يا ضعفنا، كن ذكياً، كن شهماً. حذار ان تفارقنا. حذار ان تضعف يا ضعفنا. حذار ان تخفي ضعفك، ان تخفي شيئا من افتضاحك.

حذار يا ضعفنا ان تفارق أو تضعف أو تستتر. حذار، فانت واهبنا كل هذا، حذار فانت خير لنا من كل قوة وعبقرية تجمعان علينا كل الحسد والحقد والبغضاء والخوف منا. حتى حسد وحقد وبغضاء وخوف الطبيعة. حذار يا ضعف، حذار.

انظر إلى هذا النفط الواهب نفسه لنا بجنون. انظر، انه لم يهب نفسه لأحد بمثل هذا الجنون الذي وهبنا نفسه به. لماذا فعل ذلك؟ لماذا خصنا وحدنا بجنونه الأعظم، بأعلى مستويات جنونه. لماذا؟

لعله بذلك إنما يعبر عن عطفه وعطف الطبيعة علينا رحمةً بنا، رحمة بضعفنا.

اذن حذار يا ضعف. حذار ان تفارق أو تضعف أو تستتر.

بل مزيداً، مزيداً. زدنا يا ضعف لكي نتوقع مزيدا من بركاتك، مزيدا من العطف عليك، من العطف علينا. مزيداً، مزيدا منك يا ضعفنا، يا أفضل من كل أنبيائنا ومعلمينا. يا أقوى من كل قادتنا وزعمائنا وثوارنا. يا ضعفنا، يا نفطنا، يا ضعفنا الذي تحول نفطاً يا أنبل وأقوى ما لدينا، يا أنبل وأقوى ما فينا، يا أنبل وأقوى ما في تأريخنا، يا أنبل وأقوى ما كان عند آبائنا، يا أنبل وأقوى ما ورثنا عن آبائنا.

يا نفطنا، يا أتقى من كل أنبيائنا، يا أفجر من كل أبالستنا، يا أقوى من كل آلهتنا، يا أكرم من كل تأريخنا، يا أمجد من كل آبائنا.

يا نفطنا!

يا أبلغ قصيدة كتبتها أرضنا. يا أشهر كتاب عالمي عنا. يا أقسى إعلان قرأه كل الناس عن ضعفنا.

يا أقوى قصة عن عشوائية الطبيعة. يا نفطنا.

يا نفطنا، يا نفطهم، يا نفط بعضنا، يا نفط بعض بعضنا.

يا نفطنا الذي لم يبق نفطنا. يا نفطنا الذي لم يعنِ يوماً نفطنا.

ان لك يا نفطنا ذنباً، ان لك ذنوبا يا نفطنا انك جئت حضاري المجيء، حضاري الولادة والتوليد. كان مجيئك حضاريا. كانت كل اساليب واسباب مجيئك حضارية. حتى مولّدوك؛ كانوا جميعاً حضاريين.

لكنك عشت فينا يا نفطنا غير حضاري. عشت فينا عربي الأخلاق والسلوك والمنطق. أصبحت بين العرب عربياً. انك تعيش أخلاقك ومنطقك بين العرب كما يعيش العرب أخلاقهم ومنطقهم. توزع نفسك وتستهلكها وتحسّها وتراها وتفهمها وتعلنها كأنك عربي الحاضر والتأريخ، عربي المولد والعرق، كأنك عربي أبداً. كأنك قرأت كل شعر العرب وكل تأريخهم وكل مفاخرهم وكل كتبهم المقدسة، وحفظتها وفسرتها، ثم فرضتها بكل معانيها على حياتك. حتى انك لتعيش أخلاق ومنطق آلهة العرب وأنبيائهم. انك لتعيش اخلاقك ومنطقك بالاسلوب الذي يفسر به العرب اخلاق ومنطق آلهتهم وأنبيائم.

لو لبست زي عربي وجسم عربي وتكلمت اللسان العربي، ثم عشت حياتك كما تعيشها اليوم بين قومك العرب، ثم عشت منطقك واخلاقك، ثم عشت كل أساليب العدالة والنظافة والذكاء التي تعيشها اليوم في قومك العرب، أو التي يعيشها بك قومك العرب، لما شكّ إنسان في اصالتك العربية، في عبقريتك العربية، في ديانتك العربية، في تقواك ونظافتك ونزاهتك وكرامتك العربية.

انك لو فعلت ذلك لما شك إنسان في انك حاكم عربي أو زعيم عربي أو متعلم عربي أو مفكر عربي، بل لما شك في انك نبيّ عربي، في إنك إله عربي، بكل صفاته ومواهبه العربية النفطية.

لقد ولدت يا نفطنا العظيم، يا نفطنا التافه، بقوة الحضارة ومنطقها، ولكنك عشت وتعيش بضعف البداوة ومنطقها، بضعف العرب ومنطقهم.

ولدت حضاريا، ولكنك تعيش عربيا. تعيش بدوياً، بدوياً.

ان لك يا نفطنا ذنباً، ان لك لذنوبا. انك عربي الاخلاق، عربي التفكير، عربي التوزيع، عربي الدين، عربي التديّن، عربي الكرم، عربي الحب والبغض والصداقات، عربي الزواج والتقاليد والعلاقات.

ان لك لذنباً، ان لك لذنوباً، يا نفطنا العظيم، يا نفطنا التافه، يا نفطنا الذي لا يمكن ان يكون معقولاً، يا نفطنا التافه، يا نفطنا الذي لا يمكن ان يكون معقولاً ولا مغفوراً في مجيئه ولا في اسلوب مجيئة ولا في اسلوب توزيعه لنفسه ولا في ممارساته لحياته أو لصداقاته.

شعبي شجاع جداً

نعم، أني هنا أريد أن أتحدث عن اسلوب من أساليب شعبي في شجاعته.

ولكني لا بدّ أن أقاسي من الحرج ومن عتاب الضمير ومن تأثمه ومن مشاعره بالذنب وبالعدوان على الآخرين، على الشعوب الأخرى بينما أروي لها اسلوباً واحدا من أساليب شعبي في ممارساته لشجاعته ولمواقفه العربية التي لا بدّ ان تتحول إلى تصغير وإذلال وهزيمة لشجاعات الشعوب الاخرى.

ان هذه الشعوب الأخرى حينما أحدثها عن شجاعة شعبي سيقتلها أو يذلها الخوف من شعبي، وستمزقها الغيرة والحسد منه وله، وسترهقها جداً محاولة المنافسة أو الخوف من المنافسة . .. وستعذبها حينئذٍ مشاعر الضآلة والمهانة محاسبةً شجاعتها وكبرياءها بشجاعة شعبي وبكبريائه.

لقد ترددت وتعذبت كثيرا، كثيرا بين إملاء رغبتي وتأثم ضميري.

هل أكون قاسياً إلى أقصى مستويات الوحشية بان اتحدث امام الشعوب الاخرى عن شجاعة شعبي فاصيب كبرياءها أو شجاعتها

www.ithar.com

واعجابها بنفسها واعتزازها بكل ما في تاريخها من ابطال وبطولات وامجاد بكل معاني الإذلال والتعجيز والقهر، ام أختار ان اكون غدّاراً وخائنا وجبانا امام ضعف ضميري وعواطفي فأذهب لأتعمد اخفاء شجاعة شعبي رفقا ورحمة بالشعوب التي لن تستطيع ان تطاول أو تجاري شعبي في ذلك أو ان تحاول مطاولته أو مجاراته كما لن تستطيع ان تغفر لنفسها هو انها وجبنها وعجزها وخوفها محاسبة نفسها بما سوف تسمعه عن شعبي؟ اني أخاف ان تحاكم وتحاسب نفسها بما سوف أروي لها.

ماذا أكون، أو ماذا أختار؟ هل أكون هذا ام هذا؟

هل اكون غداراً وخائنا ومقصرا ام اكون وحشا عدوانيا؟

هل أكون انساناً أي انسانيا ام اكون حقيقة أي واقعا بكل وحشية الواقع والحقيقة؟

... هل أستجيب للواجب والضمير ام استجيب للرحمة والرفق وللضعف الإنساني؟ ما أقسى الخيار أحياناً، بل ما اقساه دائما. ان أقسى ما في الخيار الشعور بقسوته. أجل، ان شعبي شجاع جداً، شجاع افرادا و شجاع مجتمعاً...

لن اجرؤ ان احدثك إلا عن اسلوب واحد من أساليب شجاعته بل عن اصغر أساليب الشجاعة. اني أهاب وأجبن ان أروي لك إلاّ أقل وأصغر أساليبه هذه. ومع هذا فكم أنا متفائل وساذج بل وغر

جداً حينما اطمع في ان تصدقني بل في ان لا تتهمني بتهمة أكبر من التفاؤل والسذاجة والغرارة..

لافترضك مواطنا من مواطني شعبي، بل لافترضك أي مواطن في أي شعب. لكن افتراضك مواطنا في شعبي يتحوّل إلى (...) اكبر على جداً على شجاعة شعبي... نعم، انت الآن مواطن في شعبي أو مفترض كذلك.

إذن احذر، احذر جداً وبكل الاخلاص والدقة والمحافظة والديمومة...

احذر جداً ان تكون صادقا أو مفكرا أو متسائلاً أو ذكيا أو نظيفا بل أو تقياً أو متدينا بضميرك أو باقتناعك أو من داخلك أو بعقلك، أو أن تكون محدقاً أي تحديق في أي شيء أو أي افق، أو ان تكون مصليا في غير مسجد السلطان، أو مستمعا إلى غير خطبة السلطان أو راوياً أو مفسرا غير خطبة السلطان بلغة السلطان وتفاسير السلطان وحركات السلطان، بل أو ان تكون في يدك مسبحة غير مسبحة السلطان أو نسخة من الكتاب المقدس مطبوعة طبعة غير الطبعة التي في يد السلطان أو مفسرها غير المفسر للنسخة التي في يد السلطان أو ان يكون أي معنى من معانيك ليس احد معاني السلطان... نعم، انه لا شيء يُخشى ويعاقب في بلاد الايمان والتدين مثل الايمان والتدين حينما يكونان صادقين منفذين أو لو كانا كذلك.

www.ithar.com

نعم، واحذر ان تكون نسخة انسانية مخالفة أو مغايرة لاية صيغة أو لأي تفسير من صيغ أو من تفاسير جثث أسلافك وأبنائك وسلاطينك وخلفائك وأنبيائك وكهانك الذين ترويهم لك رواياتك القديمة، القديمة جداً، راوية وارثة لها من قبورك القديمة، القديمة، وعن قبورك القديمة...

نعم، أنه ليجب عليك دائما ان تظل قبرا قديما، قديما مهما بدوت في صورة إنسان، أو مهما حُسبت إنساناً. نعم، وهل أكثر الناس إلا قبور مهما جاءوا في صور وملابس البشر؟

ثم احذر جداً ان تكون رافضاً أو محتجاً أو ناقداً أو غاضباً غضباً عقليا أو أخلاقيا أو مذهبياً أو فكريا أو إنسانيا، أو ان تكون شجاعاً...

نعم، حذار ان تكون شجاعا حتى ولا في عينيك أو في نظرتك، حتى ولا في أُذنيك أو إصغاءاتك أو إنصاتاتك، حتى ولا في صوتك هاتفا أو مصلياً أو مادحا، حتى ولا في تعبير من تعبيرات ارتجافك وإيمانك ومبايعاتك، حتى ولا في أية لغة من لغات أعصابك أو عضلاتك أو آهاتك أو أناتك... حتى أناتك أو آهاتك أو ضراعاتك، حذار ان يكون فيها أي تعبير من تعبيرات الشجاعة... حذار ان تكون مُحاسِباً أو مُحاكِما أو مسائِلاً أو طالبا الفهم أو التفسير.

نعم، انت مواطن من مواطني شعبي الشجاع جداً... انت الان مواطن في شعبي أو أنت مفترض كذلك. ولا بدّ ان يسرك جدا هذا الافتراض. أليس كذلك؟

إذن احذر... احذر جداً ان تكون شيئا من ذلك، ان يكون فيك شيء من الخطايا والخيانات والزندقات التي سمعت الآن الحديث عنها.

بل احذر جداً ان تكون متهما بها أو محتملا ان تكون متهما بها أو مرويا عنك أنك متهم بها أو انك قد تُتهم بها.

أن اتهامك بذلك، مجرد اتهامك، يصبح واقعا، يصبح الشك فيه خيانة.

أجل، انت مواطن من مواطني شعبي جدا أو مفترض انك كذلك. إذن فالمطلوب منك ان تتحدث في مجالسك الخاصة والعامة، في كل مجالسك، ان تتحدث عن الجنس بكل معانيه ومهاويه، وتغتاب وتسب وتذم وتحقّر وتشتم وتتهم، وان تقبِّح وتشوِّه وتهوِّن وان تَصغَر وتصغر حتى لا يتبقى لك أي حجم.

وان تغوص، تغوص في التفاهات والحقارات، والنذالات مع احتقارك واتهامك وسبك لكل شيء وكل احد وكل حضارة وكل تقدم وكل علم وكل نظافة وعبقرية وموهبة بل وتقوى ودين... لان التحدث في ذلك قد يحميك ويصرفك عن التحدث في الشؤون الانسانية... في التفكير في الحرية أو في الحضارة أو في المذاهب أو في السياسة أو في العلوم أو في الفنون أو في الأخلاق. وهذا ما يجعلك

www.ithar.com

تتكلم أو تفسر أو تفهم بغير لغة السلطان أو بغير تفاسيره أو بغير عقله أو فهمه، أو بغير تفاسير أو عقول أو أفهام الجثث القديمة... الساكنه في المقابر القديمة، القديمة.... جثث الذين اتفق معهم السلطان القائم بيننا بل وكل سلطان قد كان أو سوف يكون على ان يكونوا مستشاريه واعوانه وجنوده الطيبين، الطيبين جداً، جداً، ودائما، دائما بلا أي خلاف على أي نص أو على أي تفسير أو على أي موقف أو قضية.

نعم، انت احد مواطني شعبي الشجاع جداً، انت الآن كذلك أو مفترض كذلك، اذن عليك ألا تقارف اية خطيئة أو زندقة من هذه الخطايا أو الزندقات التي سمعت الحديث عنها وإلا فهذا بعض عقابك بل أصغر وأسهل اساليب عقابك الذي لا بدّ ان يوقعه بك شعبي الشجاع جداً، جداً.

لا بدّ حينئذٍ ان يخافك كل الخوف وان يرفضك كل الرفض بكل شجاعته وبكل كبريائه وإبائه. انه لا بدّ ان يخافك وان يرفضك افرادا ومجتمعا لانه لا نموذج لشجاعته. انه حينئذٍ لا بدّ ان يهاب لقاءك ورؤيتك أو اتهامه بذلك باسلوب لا بدّ ان تخجل منه الحشرات.

انه حينئذٍ سيتمزق خوفا من ان تلقاه أو يلقاك، من ان تراه أو يراك، من ان تزوره أو يزورك، من ان تنطق باسمه أو ينطق باسمك ولو غلطا أو تشابها بالاسماء... من ان تمرّ في طريق واحد أو ان تجتمعا في مكان واحد ولو لم يرَ احدكما الآخر أو يكلمه أو يعلم به

أو يصافحه أو يبتسم له بل أو يعبس له... من ان يُذكر اسمك امامه، من ان يُسأل عنك... هل مات.. هل مات شنقا أو تعذيبا أو باطلاق الرصاص عليه، أو خنقا أو ضربا، بالمحاكمة ام بالاغتيال... هل دفن ام أُحرق، هل دفن في الصحراء أو في المدينة، في بلده ام في بلاد اخرى؟... في مقابر اهل دينه ام في مقابر أصحاب الأديان الاخرى؟

ان رؤيتك حينئذٍ أو لقاءك أو ذكر اسمك أو الحديث عنك باي اسلوب حتى ولو بالسب والاتهام لك والبراءة منك ستصبح مشكلة بل عقدة بل تعذيبا بل موتا بل وإذلالاً وارهابا لكل شعبك افرادا ومجتمعا. بل ان اتهامك بذلك، افرادا أو مجتمعا، أو احتمال اتهامك أو الخوف من هذا الاتهام أو التهديد بهذا الاتهام أو التهديد بهذا الاتهام سيصبح احدى مشاكلهم ومخاوفهم واحزانهم وذنوبهم ومقاتلهم. ان احتمال اتهامهم افرادا أو مجتمعا بذلك سوف يتحوّل إلى سلاح رهيب، رهيب، يهددهم ويخيفهم ويذلهم به أي إنسان بل اضعف وأجبن إنسان. انهم حينئذٍ محتاجون جميعا حتى الكبار منهم جداً إلى ان يركعوا لهذا المهدد المخيف المذل لهم بهذا السلاح، ضارعين متوسلين اليه ان يكون بهم رفيقا رحيما، واعدين له بكل الثمن وباغلى الثمن وبكل الهوان والطاعة والاستسلام لضغوطه وإملاءاته وشروطه وتحت اقدامه.

... لئلا يروي عنهم انهم يعرفونك أو يعرفون اسمك أو يعرفون قراءة اسمك لو وجدوه مكتوبا.

ان محاولة البراءة حينئذٍ من الاتهام أو من هذه التهمة ستصبح احد الفنون الصعبة أو احدى القضايا الكبرى الأليمة اللئيمة. ولعل محاولتهم البراءة من هذا الاتهام هو فنهم الفريد أو قضيتهم الكبرى التي تصنع فيهم ولهم الحماسة والارتجاف ولو حماسة وارتجاف الخوف والتوبة والاعتذار والاستغفار. انهم خامدون، خامدون إلا حينما يخافون أو يتوبون أو يستغفرون أو ينافقون، أو حينما ينكرون انهم يعرفونك ان كنت متهما بالصدق أو بالنظافة أو بالتفكير أو بالتحديق في الأشياء والاشتراط عليها.

حتى كتابة اسمك حينئذٍ تحت أي سبب أو ظرف، انها مغامرة كبرى. هل يمكن ان تصدق ان احدا منهم قد يملك من جنون الشجاعة ما يجعله يجرؤ على ان يكتب اسمك بقلمه أو على اوراقه التي يكتب عليها كل انواع واسماء وجنسيات واوصاف واخلاق الحشرات وأماكنها وقبائلها وعاداتها وتقاليدها وشهواتها وكل ذنوبها وصغائرها واهتماماتها بل وهمومها بل وغرامياتها؟ ان شجاعة شعبي لتجد في اغتصاب عفة الشمس لذنباً اصغر من ذنبك لو انك عرفت إنساناً قد بقي في جبهته بقية لم تأكلها الحشرات التي كل عملها ان تأكل كل الجباه من كل الوجوه.

نعم ان شعبي لشجاع جداً. ان من اساليب شجاعته ان يجرؤ افرادا ومجتمعا على ان يرفض ان تلقاه أو يلقاك أو ان تعرفه أو يعرفك أو ان يعرف قراءة اسمك أوكتابته أو النطق به أو ان يعترف ان يقتنع بانك موجود أي ان كنت متهما أو لو كنت متهما باي مستوى من

الصدق أو الفكر أو الذكاء أو الشجاعة أو المساءلة أو الرؤية أو التحديق أو الاشتراط الأخلاقي أو العقلي أو الانساني بل أو من التدين الصادق والايمان الذكي.

... أو ان كنت عاجزا عن ان تتحوّل إلى مقبرة كئيبة يتجمع فيها كل ما في التاريخ الكئيب من اوثان وغباوات ومهانات ومن اكاذيب ومن تحطيم وإذلال لكل ما في الإنسان من احتمالات الطموح والشموخ والكبرياء الفكرية والاخلاقية والحضارية. اواه، كم يعادون الكبرياء الفكرية اوالاخلاقية أو الانسانية... كم يقاومون ويرهبون ويدمرون كبرياء الضمير والرفض والاحتجاج فكيف العصيان؟

... أو ان كنت لا تملك جبهة جيدة واسعة تستطيع ان تكون ممرا ومكانا جيدا، لتمرّ عليها وتقيم فيها احذية السلطان الموجود والسلاطين الذين كانوا موجودين والسلاطين الذين لا بدّ ان يجيئوا ليصبحوا موجودين وتصبح لهم احذية تحتاج إلى جباه جيدة لتقيم فيها وتمرّ فوقها.

ولكن هل يقبلون لن تكون لك أو تبقى لك جبهة حتى ولو تكون مكاناً وممراً لكل الأحذية؟ هل يقبلون إلى وجه كان فيه يوما ما جبهة؟ هل يتركون الوجوه تنبت الجباه أو تعيش فيها الجباه؟

نعم، ان شعبي شجاع جداً وان من اعلى اساليب شجاعته جرأته التي لا حدود لها ولا مثيل لها على ان يحطم ويميت في بنفسه وفي حياته وفي طموحه وامانيه وفي اشواقه ونياته كل احتمالات ان يكون

صادقاً أو شجاعاً أو حراً أو مفكراً أو ناقداً أو مبصراً أو رافضاً أو غاضباً أو أبياً أو ذكياً أو صاحب ضمير، بل أو ان يكون متدينا أو تقياً أو مؤمنا باقتناع أو برؤية أو بمنطق أو باخلاص أو باحترام لما يؤمن به أو لمن يؤمن به.

إذن أين توجد شجاعة مثل شجاعة شعبي؟ وهل يمكن ان توجد؟

ان شعبي شجاع جداً ليحطم ويميت في نفسه وفي حياته وفي طموحه واشواقه وامانيه ونياته وتعبيراته كل هذه الاحتمالات بجرأة وبسالة لا حدود ولا نموذج لهما لانه يطيع ويخضع باسلوب وتقوى لا مثيل ولا نموذج لهما رهبة وضآلة وتقليدا لجبروت سلاطينه ولجبروت كهانه وتاريخه وقبوره، ولجبروت تقاليده ونصوصه واشعاره ولقوة اخلاقه وخصائصه العقلية والنفسية والتاريخية والعرقية والنفسية والحضارية والانسانية...

إذن هل يوجد شعب شجاع جداً مثل شعبي، لتركع إذن كل شجاعات الشعوب تحت أقدام شجاعة شعبي. وهل تتواضع شجاعة شعبي لتتقبل ان تركع تحت أقدامها كل شجاعات العالم وكل ما في العالم من هامات وقامات؟ إذن هل يوجد انسان واحد لا يتمنى ان يكون مواطنا من مواطني شعبي؟ هل جربت أو ألا تجرب ان تكون هذا المواطن المحظوظ السعيد مثلي لكي تجرب هذا الذي جربت من شعبي؟ لكي تجرب هذه الشجاعة التي جربتها في شعبي... جربتها في شعبي افرادا ومجتمعا. وانا الآن اجربها في أقسى وأعلى وأصدق مستوياتها.

هل أتمنى لك ذلك؟

لكن هل أنا بكل هذه القداسة والتقوى لكي اذهب أتمنى لك ان تكون مواطنا لي لتعيش الشجاعة التي يعيشها ويعيش فيها شعبي، ولتعيش في مزاياها وحمايتها وفي كبريائها؟ نعم وهل توجد كبرياء مثل كبرياء شجاعة شعبي؟ وهل توجد كبرياء مثل كبرياء شعبي أو هل توجد شجاعة لها كل الكبرياء مثل شجاعة شعبي؟

... أجل، وكأن شعبي الشجاع جداً لم يعلم ان اسرائيل موجودة وانها موجودة بالاساليب التي هي بها موجودة، بكل انتصاراتها وبكل تفاسير ودلالات انتصاراتها؟

والآن لو ان شعبي الشجاع جداً علم بوجود اسرائيل فكيف يمكن ان نفسر أو نفهم وجود اسرائيل وبقاءها؟

كيف حدثت هذه المعجزة؟ كيف حدث ان اسرائيل لم تعلم بوجود شعبي وحدث ان شعبي لم يعلم بوجود اسرائيل؟ كيف حدث هذا؟

إذن كم هي مسكينة اسرائيل لان هذه المعجزة لن تدوم... لن يدوم ان تظل إسرائيل تجهل وجود شعبي، وان يظل شعبي يجهل وجود إسرائيل.

لكن أيهما أفضل وأعظم أو أتقى: ان يعلم شعبي اولاً بوجود إسرائيل ام ان تعلم إسرائيل اولاً بوجود شعبي؟

إذا علمت إسرائيل اولاً بوجود شعبي الذي رويت اسلوبا واحدا من اساليب شجاعته فان إسرائيل لا بدّ ان تتخلص من وجودها باي اسلوب تراه أقل أو أخف تعذيبا وإذلالاً وتحقيرا لها. أما لو علم شعبي اولا بوجود إسرائيل فان اسلوب إزالتها سيكون أكثر قسوة وقهرا وتنكيلا بها ولها وعليها. ولكنه لا بدّ ان يكون اعظم وأشهر تمجيدا لشعبي واعلانا عالميا وتأريخيا عنه.

فاي الاسلوبين إذن أفضل، أو ايهما يجب ان نختار؟

هل نختار الانسانية والرحمة مع التواضع ام نختار المجد والدوي مع الكبرياء والقسوة؟

لعل قسوة الخيار والاختيار بين هذا وهذا هي التي اعتقلت تصرفات شعبي وقبضت على يديه حتى اليوم بهذا الاسلوب الحزين الذليل.

وكم نرجو ألا يكون هذا القبض والاعتقال لتصرفات وليدي شعبي أبديين. كم نرجو ألا تكون انسانية شعبي أو رحمته ابدية.

ان شعبي معجزة في الشعوب، معجزة في الطبيعة، معجزة في كل المقاييس والتفاسير واللغات.

ومن معجزات شعبي انه لا يتفاوت في تفاسيره أو معانيه أو في أحجامه وأبعاده. انه أبدا إنسان واحد أو شيء واحد أو خليفة واحد أو سلطان واحد.

انه طول واحد وحجم واحد وذكاء واحد ورأي واحد ورؤية واحدة وعقيدة واحدة وجبهة واحدة وصلاة واحدة وشجاعة واحدة. انه لا يتفاوت في قبوله أو رفضه، في رضاه أو غضبه أو في شجاعة.

انه لا يتعدد في مواقفه ولا في مستوياته أو انفعالاته أو نظراته أو رؤاه.

لهذا كان شعبي شجاعا جداً. لانه لا يتعدد حتى ولا في آهاته أو أناته أو عاهاته. بل ولا في شجاعاته...

اسرائل ليست موجودة!

مواجه هذا العنوان قد يُدم أو يتعجب أو يُسر أو يرثي لكاتبه اشفاقاً على ذكائه وسذاجته.

لهذا آمل من القارئ ألا يكون قاسياً أو سريعاً في حكمه، وأن يتفضل بوقف انفعالاته ويوقف رثائه واشفاقه وكذا تعجبه وسروره وذهوله حتى يرى ان اسرائيل حقاً ليست موجودة، وانها لم توجد قط مهما هزمت الجيوش العربية ثلاث مرات ومهما استمرت اسرائيل تعيش انتصاراتها الثلاثة واستمرت الشعوب والجيوش العربية تعيش هزائمها الثلاث.

ان اسرائيل ليست اسرائيل لكنها هي العالم العربي قد جاء في صيغة أخرى. انها في التفسير للعالم العربي.

منذ خمسة وعشرين عاماً وكل اهتمامات العرب وهمومهم وخطبهم ومؤتمراتهم وجيوشهم واستعداداتهم وتحدياتهم وانذاراتهم وصيحاتهم وغضباتهم ومخاوفهم، وكل قراءاتهم وتفاسيرهم للتاريخ وللمستقبل، وكل تطلعاتهم الى التاريخ والى المستقبل، وكل هتافهم

بالنجوم وبالسماء وبالغيب وبالمجهول وبالآباء والقبور وبالأوهام وبكل شيء...

نعم، منذ خمسة وعشرين عاماً والعرب يعيشون ويعدون كل ذلك ليقاتلوا ويهزموا ويواجهوا ويخيفوا به وهماً من الأوهام أو شبحاً من الاشباح هو اسرائيل التي هي غير موجودة والتي لم توجد قط، انما وجد العرب في صيغة تحولت الى وجود لاسرائيل.

كل الخوف من اسرائيل والتخويف بها والوعظ ضدها وقراءة الاذكار والكتب المقدسة والتضرع الى الآلهة للنجاة منها ـ وكان ذلك شبه ما تفعل المنابر والمحاريب الدينية تحصناً من فتكات الشيطان. ان الشيطان لم يوجد وانما وجد الانسان في صيغة تحولت الى وجود للشيطان، وان اسرائيل لم توجد وانما وجد العرب في صيغة وجود لاسرائيل!

نعم، ان اسرائيل بالنسبة للعرب ليست موجودة ولا يمكن ان تكون موجودة.

انها مهما كانت موجودة وخالدة وقوية وضخمة ورهيبة ومتطورة جداً وعلمانية وفنية بلا قياس وبلا نموذج. أجل، انها مهما كانت كل ذلك وأكثر من كل ذلك فهي بالنسبة الى العرب ليست موجودة ولا يمكن ان توجد بالنسبة اليهم.

وانه لعار أن يعتقد العرب أنها موجودة أو أنها قد توجد، أو أن يعلنوا وجودها أو أن يخافوا وجودها أو أن يشكوا الى أحد وجودها، أو أن يخبروا أية دولة أو أية هيئة دولية انها موجودة.

حتى الاخبار بوجودها، انه لتعبير جيد عن العار الجيد. وما أكثر انواع العار الجيد! لكن كيف ذلك؟ وما تفسير هذا؟ هل ها هنا لغز أو أحجية أو مزحة غير ذكية؟

كلا... انه لا شيء من ذلك.

ان العرب باعدادهم البشرية الهائلة وبمواردهم الطبيعية التي كأنما كانت الآلهة تعرض بزهو ونزق ثراءها وكبرياءها وقدرتها على العطاء بلا جنسيات أو شروط اخلاقية أو منطقية، حينما ألقت بها، أي بمواردهم الطبيعية، تحت اقدامهم المصلوبة الى التراب والخمول.

نعم، ان العرب باعدادهم وبمواردهم هذه اما ان يكونوا متقدمين متطورين متحضرين متكافئين مع أعدادهم ومواردهم، محولين كل امكاناتهم إلى قوة والى رخاء والى حضارة وابداع، واما ان يكونوا عاجزين عن كل ذلك، أي ان يظلوا احتمالات مهجورة او مقهورة، أو مزجورة أو عاجزة ذاتياً عن الحركة والتحوّل والكينونة وعن أي اسلوب من أساليب التطور، أي ان يظلوا احتمالات عملاق في واقع قزم، أو احتمالات فيل في ذات نملة، أو احتمالات حقول وحضارة في واقع صحراء وبداوة، أو احتمالات حبل ولادة في واقع عقم وإجهاض، أو احتمالات نطق في واقع خرس، أو احتمالات

انتصارات وعبقرية في واقع هزائم وتفاهات، أو احتمالات أكثر من مئة مليون إنسان في واقع أقل من مليون إنسان.

نعم، ان العرب اما ان يكونوا هذا الافتراض أو الافتراض الآخر.

أن يصبح العرب هم الافتراض الاول فان إسرائيل لن تكون موجودة بالنسبة إليهم إلا كوجود فنلندا أو أسوج بالنسبة إلى روسيا أو كوجود أصغر دولة في القارة الاميريكية بالنسبة إلى الولايات الاميريكية المتحدة، أو كوجود دولة اللوكسمبورغ بالنسبة إلى ألمانيا.

فهل هذه الدول الصغرى موجودة بالنسبة إلى هذه الدول الكبرى بالمعنى الذي به إسرائيل موجودة بالنسبة إلى الدول العربية؟ وهل يمكن ان تشعر هذه الدول الكبرى بوجود هذه الدول الصغرى أو ان تعلن وجودها باسلوب الخوف منه والاستعداد له، أو ان تتوجه بكل التضرع والذعر إلى كل العالم ليحميها مما في وجود هذه الدول الصغرى من أخطار عليها، على وجودها وعلى حياتها وعلى كبريائها وعلى أمجادها وعلى تاريخها ومستقبلها وعلى عزتها وكرامتها أو شرفها، بل وعلى أربابها واديانها وعلى كل قيمها ومزاياها الموروثة والخالدة؟

نعم، هل يحتمل ان تفعل هذه الدول الكبرى شيئا من ذلك بالنسبة إلى وجود هذه الدول الصغرى كما تفعل الدول العربية بالنسبة إلى وجود إسرائيل؟ وهل يوجد هجاء للنفس أو تحقير لها يساوي هذا الهجاء وهذا التحقير؟ هل يوجد خوف من الأشباح وتحدث عن خطرها مثل ان تخاف هذه الدول الكبرى من هذه الدول

الصغرى وان تتحدث عن خطرها، أو مثل ان تتحدث الدول العربية عن إسرائيل وعن الخوف منها وعن أخطارها عليها؟ هل عرف البشر عاراً أكبر من هذا العار أو مثل هذا العار؟

وأيهما اكبر عاراً : ان يخاف الرجل الكبير الاشباح وان يبكي خوفا منها وان يحسّ بوجودها بكل ارتجاف ورهبوت فكري وديني ونفسي، ام ان تخاف الشعوب والجيوش والقيادات العربية، إسرائيل، وان تتحدث عن خوفها منها بكل اللغات والاساليب والمذاهب والافكار الدولية، وان تحس بوجودها بكل آلهتها وانبيائها واديانها واخلاقها وبكل تعبيراتها، وان تبكي امام كل الابواب رجاء المساعدة والانقاذ؟

ان يحسّ الفيل بوجود النملة وبخطرها عليه وبالخوف من ان تحطم وتطحن قدماها جسده الضخم، وان يصرخ صراخا دوليا، وان يجدها ويراها بكل رؤاه وأحاسيسه ومخاوفه وهمومه وفي كل مستقبله وحاضره وطرقه وآفاقه، ام ان يعتقد العرب ان إسرائيل موجودة وجوداً فيه أي معنى أو أي مستوى من معاني أو من مستويات التهديد أو التحدي أو الإذلال لهم أو العدوان عليهم أو التعويق لاية انطلاقة من انطلاقاتهم أو من القدرة على المبارزة لأية بطولة من بطولاتهم أو لأية شهوة من شهواتهم أو لأية غزوة من غزواتهم الحضارية أو العلمية أو الاخلاقية أو الدينية أو الانسانية أو الكونية؟

أليس إيمان العرب بوجود إسرائيل وخوفهم منها مثل إيمان الرجل الكبير بالاشباح ومثل خوفه منها؟

هل رأيت رجلاً كبيرا يبكي خوفا من إيمانه بالاشباح ومن عدوانها عليه؟ هل تشك في انك رأيت مثل هذا الرجل؟ هل تهاب رؤيته؟

ألست قد رأيت هذا الرجل حتماً وكل لحظة تراه وتعيشه ويعيشك بقدر ما رأيت وترى الشعوب والجيوش والقيادات العربية تصرخ وتبكي وتخطب وتنادي وتتنادى وتستغيث خوفا من إيمانها باسرائيل ومن عدوانها عليها ومن ضخامتها وبدانتها في عيونها وفي أحاسيسها وتصوراتها؟

هل رأيت شيئا يصنع لك كل الغيظ مثل رؤيتك لقومك العرب باكين امام كل باب خوفاً من إسرائيل؟

واما ان كان العرب هم الافتراض الثاني، أي ان يظلوا احتمالات هائلة في واقع حزين، أي ان يظلوا عاجزين عن التحضر والتطور وعن تحويل الامكانات إلى كينونات، فان هذا هو المأساة والألم والخطر والخسران... وليس وجود إسرائيل.

ماذا يمكن ان يربح العرب لو كانت إسرائيل غير موجودة إنْ كانوا سوف يظلون باعدادهم البشرية وبمواردهم الطبيعية خمولاً وخموداً وعجزاً رائعاً، رائعاً؟

ماذا يمكن ان يصنعوا حينئذٍ لانفسهم أو للانسانية أو للحياة؟ ماذا يمكن حينئذٍ ان يربح العالم أو تربح الحضارة أو تربح الاديان أو الاخلاق أو الدنيا في أي معنى من معانيها؟

ماذا يمكن حينئذٍ ان يهدي العرب لقلوب الآلهة أو لعيونها أو لطموحها من مسرات أو من جمال أو من مجد أو من حب أو من كبرياء، أو لأعصابها من راحة وهدوء؟

إذن إسرائيل ليست موجودة بالنسبة إلى العرب. ليست موجودة بالنسبة اليهم ان كانوا متحضرين ومتطورين، ولا إن كانوا عاجزين عن التحضر والتطور، وظلوا عاجزين عن ذلك.

إن كان ممكنا ان يتحضر العرب ويتطوروا وان يحولوا الاحتمالات الكبيرة إلى واقع كبير فان وجود إسرائيل قد يكون أو لا بدّ ان يكون تحريضاً ممتازاً على الإسراع في هذا التحضر والتطور والتحويل والتحوّل من احتمال إلى كينونة. قد تكون إسرائيل هي انفع هدية من الجحيم يهديها الشيطان ويهديها الظلم الدولي إلى العرب لكي تصفع جمودهم وركودهم وخمولهم المستلقي على تاريخهم، على تاريخهم المستلقي على اربابهم وعلى قبورهم وعلى بداوتهم وعلى قصائدهم وعلى رواياتهم عن أنفسهم المصابة بكل كبرياء البداوة وبكل اتضاع الحضارة... بكل ضخامة القول وبلاغته وحماسته، وبكل ضآلة الفعل وعجزه وخموده.

ان وجود إسرائيل قد يكون هو أقوى صفعة مهينة توجهها الأقدار، ويوجهها العالم، وتوجهها هيئة الامم المتحدة، وتوجهها الدول الكبرى إلى العرب، ويوجهها العرب إلى انفسهم لكي تخرج بهم من جمودهم المميت، لكي تخرج بهم من قبور آبائهم ومن ضعف آبائهم ومن صحراء آبائهم ومن تأريخ آبائهم المريض بالكبرياء.

لكن ألا يحتمل ان يكون هذا بتدبير تحت حوافز وضغوط اشفاق نبيل؟

نعم، ألا يحتمل ان ضعف العرب وخمود مواهبهم وخمود امكاناتهم الهائلة قد روع وآلم الاقدار المتوحشة الضمائر والاخلاق، كما روع وآلم هيئة الامم المتحدة والدول الكبرى فدبرت، أي الاقدار وهيئة الامم المتحدة والدول الكبرى، وجود إسرائيل لتكون تحديا مهينا مذلاً للعرب، لكي تفرغهم من ضعفهم ومن خمودهم، لكي تجرب محاولة شفائهم من ضعفهم وخمودهم بهذا الداء الأليم البذيء الظالم المهين؟

لكن هل الاقدار أو هيئة الامم المتحدة أو الدول الكبرى رحيمة أو نبيلة إلى ان تفسر مقرراتها وخطواتها وضرباتها بهذه التفاسير الرحيمة النبيلة؟

ولعل ضعف العرب قادر ان يصنع لهم الرحمة حتى في القلوب والاخلاق التي لا تملك الرحمة والنبل.

إذن فاسرائيل ليست موجودة بالنسبة للعرب حتى ولا في صيغة تعويق لتطورهم وتحضرهم أو لمنع اطلاق مواهبهم وامكاناتهم المعتقلة في كهوف خمولهم واسترخائهم. وهل توجد امكانات معتقلة في عجز أصحابها مثل امكانات العرب؟

ان وجود إسرائيل، وكذا الخوف منها والاحساس العنيف بوجودها وبالخوف منها، وكذا انتصاراتها الماضية وتوقع انتصاراتها

المقبلة، وكذا التحدث عنها وعن وجودها وعن جسامة اخطارها بكل هذا الارتجاف والافتضاح والديمومة وبكل هذا البكاء والاستجداء.

نعم، ان ذلك كله هو التعبير العنيف الأليم الشامل عن عجزنا عن التقدم والتحضر وعن الكينونة القوية المتناسبة مع أعدادنا البشرية ومع مواردنا الطبيعية الهائلة المصابة بكل جنون الضخامة والاسراف... بل ان ذلك هو التعبير العنيف الأليم الشامل عن يأسنا الحاسم المرير من هذا التقدم والتحضر ومن هذه الكينونة!

ان الزعيم أو الحاكم أو الكاتب أو المفكر العربي الذي ينهض ليخطب وينذر ويحذر بكل الحماسة والغضب والخوف والصدق، متحدثا عن أخطار إسرائيل على حياة الامة العربية وعلى مستقبلها وحريتها وعلى أمجادها أو قيمها وعلى عبقريتها الواهبة للتاريخ والحياة كل لغاتها ومعانيها وتفاسيرهما وكل كبريائهما...

أجل، انه حينما ينهض ليفعل ويقول ذلك فهو، دون أن يقرأ نفسه أو يفهم نفسه، أو يقرأ أو يفهم أقواله أو نياته، إنما يعني ان يقول:

ان العرب لا يمكن ان يتقدموا أو يتحضروا أو يتطوروا أو ان يتكافأوا مع أعدادهم ومع امكاناتهم الطبيعية الفاضحة لعدل ولذكاء ولأخلاق المنطق الواهب للأشياء حساباتها ومقاديرها ونظامها!

انه يعني ان يقول ، دون أن يقرأ نفسه، ان الفيل لا يمكن ان يتكافأ بضخامته البدنية مع ضخامة النملة البدنية!

انه لو كان يتصور ان العرب قد يتطورون ويتحضرون، أو لا بدّ ان يتطوروا ويتحضروا، لما امكن ان يخاف على مستقبلهم من اخطار إسرائيل.

ان الخوف على مستقبل مئة وثلاثين مليون إنسان من عدوان مليوني إنسان لشيء لا نموذج له في الهجاء والتحقير وفي اليأس من الكينونة القوية المتكافئة مع ضخامة العدد وضخامة الامكانات. ان ذلك ليس إلا اسلوبا من اساليب الحكم بالاعدام.

انتم ايها الزعماء الخطباء المتحدثون عن أخطار إسرائيل على مستقبل أمتكم، انتم بهذا تزعمون انه محكوم على احتمالات تطور امتكم وتحضرها بالأعدام. فهل تعون ذلك أيها الزعماء الخطباء البلغاء؟

وجميع العرب يتدحثون عن الخوف على مستقبلهم من إسرائيل، من وجود إسرائيل. إذن جميعهم يائسون من أنفسهم، وجميعهم يحكمون على أنفسهم وعلى احتمالات تطورهم وتحضرهم بالأعدام.

ان إسرائيل بالنسبة إلى العرب ليست سوى جهاز كشف وفحص. انها جهاز اختبار وقياس، قاس جميع حدودهم وآفاقهم وأبعادهم. لقد اختبر عضلاتهم ومعنوياتهم ونوعياتهم. انها كأجهزة الطبيب وكتحاليله وكعيونه وآذانه وقراءاته وتفاسيره.

ان أية هيئة طبية لم توقع على مريض مثلما وقعت إسرائيل على العالم العربي.

لقد جاءت إسرائيل بالنسبة الى العرب أصدق وأقسى جهاز كشف وفحص. لم يكن ممكنا ان يوجد جهاز كهذا الجهاز ليوقع على كل هذه الفحوص والكشوف بكل هذا الصدق والشمول والقسوة لو لم توجد إسرائيل في حياة العرب!

والخوف لا ينبغي ان يكون من أجهزة الكشف والفحص والاختبار. لكن الخوف، وكذا المقاومة، يجب ان يكون كله من الآفات والعاهات والامراض والتشوهات التي تعلنها هذه الاجهزة.

لكن وأأسفاه، ان كل مخاوف العرب واهتماماتهم وانذاراتهم وصيحاتهم ولعناتهم وادويتهم المختلفة المشكوك جداً في قيمتها العلمية والعلاجية، موجهة إلى هذا الجهاز لا إلى النتائج الأليمة الحزينة التي أعلنها بكل الصدق والقسوة والشمول.

هل يمكن ان يفهم العرب هذا، ان يفهموه فقط لكي يكفوا عن هذا العار الجيد جداً، عار التحدث عن الخوف من إسرائيل؟ وكم في انواع العار من عار جيد!

أنسي الحاج

الرجل القادم من الصحــراء

ينزل عبد ا لله القصيمي تمزيقاً في المحرّم. كتاباه "هذا الكـون، مـا ضميره؟" و"كبرياء التأريخ في مأزق" لم أعرف مثلهما في الأدب العربي المعاصر تحريضاً وإشاعة وعصيان. وهو ليس مفكراً يشرح نظريات، انه القاموس العربي وقد إستحال صراخاً ضد التزوير، بمعناه التأريخي، ضد القمع والتخلف والسدود كلها.

هذا الرجل القادم من الصحراء، السعودي المقاتل كل شيء، الرافض كل شيء، الحرّ في كل شيء ، يتكلم كالشهيد الحيّ. ماذا يريد؟ يريد أن يفرِّغ الدنيا العربية نفسها ويؤلفها على الحرية، والعقل، والكرامة.

كتبه فضيحة تأريخية. فضيحة أن يكون العقل العربي قد ظل حتى الآن خالياً من عبد ا لله القصيمي. فضيحة، عبد ا لله القصيمي، تفضح ألوف ماسخي الكلمة العربية كل يوم من المحيط إلى الخليج.

اقرأوا القصيمي. لا تقرأوا الآن إلاّ القصيمي. يا ما حلمنا ان نكتب بهذه الشجاعة! يا ما هربنا من قول ما يقول! يا ما روضنا أنفسنا على النفاق، وتكيفنا، وحطمنا في أنفسنا الحقيقة، لكي نتقي شر جزء مما لم يحاول القصيمي ان يتقي شر قوله في كتبه. ويهجم على الكلمة هجوم البائع الدنيا بكلمة، وتقتحمك كلماته التي لا تتوقف اقتحام الحريق المتصاعد ضد كل شيء.

وهل من شيء لا يوقَف ضده في حياة العالم العربي؟

ضد كل شيء. بزخم فيه إرادات عصور من التمرد السجين والحرية المكبوتة.

ويرفع القصيمي يده المعروقة، المؤلمة الجارحة، وينزل تمزيقاً.

ويجن جنونه ببساطة الأولاد والأنبياء، بقوة عمياء من الطبيعة.

يجن جنون الصحة على المرض، الحياة على الموت.

جنوناً وحيداً صارخاً في الصحراء.

يجن عن كل العرب منذ مئات السنين.

ولا يرتاح له عَصَب. ولا يتراجع منه اللسان. ولا تصدقه عيناك!

أعَربيّ، تتساءل، هذا القائل هذا؟

وكثيرا تتساءل. إنه يبقيك في الخوف عليه من أن يتوقف أو ينهزم. لكنه لم يستحق عَبَثاً حكم الإعدام الصادر عليه!

ومن الصحراء، من قلب الصحراء نَبَت. في الصحراء فجأة، وفيما الجميع لا يترقبون هناك أحداً.

نَبَت كالشوكة كالفاجعة. نبت ضد الطبيعة. وحيث مشى في الصحراء صارت كل حبة رمل بَطَلَة.

وصار في الصحراء شجرة عظيمة.

طرد القصيمي خيانة عظمى

إننا نحتج على ترحيل عبد ا لله القصيمي.

إننا نعتبر ترحيله نفياً ونعتبره طعناً بكرامة كل كاتب في لبنان.

لم يفعل القصيمي شيئاً. أفكاره موضوعة في كتب، والكتب يُجاوَب عليها بكتب. معاملة الكاتب بالتدابير البوليسية تصرف جبان.

كان لعبد ا لله القصيمي الشجاعة لأن يقول في كتبه رأيه بصراحة في مؤسسات وأوضاع ووراثات عربية.

وعلى من له رأي مخالف أن يظهر رأيه بأسلوب مماثل. نحن في مدينة ولسنا في غابة. نحن دولة ولسنا عصابات.

اننا ندعو رئيس الجمهورية إلى الإهتمام بهذه القضية. نطلب منه أن يحقق بشخصه ليعرف من أصدر الأمر بإخراج الكاتب السعودي، ولماذا، ولماذا لم تنفع المساعي التي بذلت للرجوع عن قرار إبعاده.

قيل ان القصيمي أُبعد لأنه كان يقوم بنشاط سياسي. نحن واثقون أن هذه تهمة ملفقة، وأنها حتى لو صحت فلا تعني شيئا. تسعة على عشر أشخاص في لبنان، لبنانيين وأجانب، يقومون في كل مكان بنشاط سياسي.

وقيل أيضا ان القصيمي أُبعد لإنقاذه من مؤامرة كانت تدبر لإغتياله على أرض لبنان، وان السلطات أرادت ان تخدمه بترحيله. نحن واثقون أن هذا العذر حجة. وحتى لو كان صحيحاً فإن جواب الكاتب السعودي كان ، بالحرف، كما أعلنه لي: "قلت للمسؤولين عندكم إني أُفضل أن اُقتل في لبنان على ان أُقتل خارج لبنان. توسلت إليهم أن يتركوني أبقى. قلت لهم: لبنان هو الشاطيء الوحيد والأخير في هذه الصحراء. لكنهم لم يسمعوني".

القصيمي مطرود والسياسيون لا.

القصيمي ، هذا النحيل كالقصبة، هذا العظم الشعري الموجع، هذا الضمير العاري الذي ينعصر له القلب، القصيمي محروم من الإلتجاء إلى لبنان، والقَتَلَة، الحشرات، الجواسيس، مدبرو البغايا، تجار الرقيق الأبيض، جرذان المؤامرات ومرتزقة الأغتيالات وخدام شبكات التهريب والدعارة، يسرحون في لبنان ويمرحون.

إننا نعتبر ذلك خيانة وطنية.

نحن نعطي السياسيين حق اللجوء ونأوي الجميع. مَن أحق بالحماية والحرية: سياسي يحترف الكذب أم كاتب يصارع الكذب؟

نحن بلد لا يعني شيئا خارج بضع قيم أخلاقية وروحية، قيم الانفتاح والرحابة والحرية والترحيب بتعايش الأضداد والمتناقضات واللجوءات. كانت قيمتنا الأساسية لأننا غير عدائيين، ولكننا في الوقت نفسه غير مشلولين بالخوف، نسبياً، من حرية التعبير. لقد

طردنا عبد الله القصيمي، المطرود من كل البلاد العربية، لأننا خضعنا للخوف.

هذا معناه اننا صرنا أسوأ من السجن.

طرد عبد الله القصيمي هو طرد للكاتب اللبناني.

هو تجديف على أقدس الحقوق والرموز والقِيَم.

هو اعتداء على تراثنا العريق في الحرية.

هو خيانة عظمى.

عبد الله القصيمي سافر إلى القاهرة ليختار الملجأ وليبحث عن الحماية.

القاهرة تعطي الكاتب الحر ما تمنعه عنه بيروت!

من سمح، في بيروت، بهذه الجريمة؟ لأي سبب؟ تحت أي ضغط؟ بأي ثمن؟ إننا نحيّي القاهرة تحية الحب ونمنحها ولاءنا. لم يعد لبنان بيت المضطهدين.

لقد فقد هذا الشرف، تنازل عن كبريائه. سقط سقوطا معيباً.

نحن بعد الآن مصريون بقدر ما القاهرة تفتح حدودها لمطرودين من بلاد الخوف.

نحن الآن نعيش في بلد الخوف.

نحن الآن مواطنون في دولة اختارت أن تطرد الكتّاب الأحرار لأنها لم تستطع أن تتحمل شجاعتهم ونظافتهم.

نحن الآن في السجن.

... كنا فيه قبلاً... ولكنْ حَسِبنا أننا بدأنا ننساه!

من عبد ا لله القصيمي وإليه

تلقيت هذه الرسالة من عبد ا لله القصيمي، القاهرة:

"صديقي أُنسي الحاج.

كلما أردتُ ان أنسى، أن أصمت، أن أغفر، لم أستطع.

لبنان يتسع لكل هذا، لكل هؤلاء ثم يختنق ضيقاً بهذا الإنسان. أخلاق لبنان، تسامح لبنان، حرية لبنان تهضم كل هذا الطعام، كل هذا الطعام الرديء، كل هذا الطعام الفاسد، كل هذا الطعام المغشوش ثم تخرج عن كل وقارها، عن كل تسامحها، عن كل حرياتها، رافضة أن يكون بين أطباق هذا الطعام الرديء الفاسد المغشوش هذا الطبق الواحد، هذا الطبق الواحد. هذا الطبق الواحد.

صحة لبنان تستقبل كل هؤلاء الحاملين لكل سلالات الأوبئة، لكل الجراثيم المعدية، تستقبل كل هؤلاء الحاملين لكل منابت الأمراض، تستقبلهم بمناعة، بشجاعة، ثم ترتجف خوفاً من هذا الإنسان، خوفا من الجراثيم التي لا يحملها هذا الإنسان، خوفا من الجراثيم التي لا يحمل هذا الإنسان واحداً منها، خوفاً ممن لا يحمل احتمالاً من احتمالات الخوف.

فكر لبنان يواجه كل الأفكار المتحدية، كل الأفكار المناقضة، كل الأفكار الشاذة والرديئة والسخيفة والبليدة، يواجه كل الرياح، كل الأعاصير، دون أن يغلق على نفسه الأبواب، دون أن يدخل السراديب والكهوف، بحثاً عن الحماية، عن الأمان، ثم ينهض بكل موكبه الرسمي، بكل أجهزته الرسمية لكي يعاقب إنساناً بالطرد المهين خوفاً من أن يكون ــ أي هذا الإنسان ــ احتمالات التحدي ــ خوفاً من أن يكون هذا الإنسان خطراً على فكر لبنان، على نظامه، على مذاهبه، على أربابه، على معابده، على أمنه، على سلامته، على رخائه ــ ثم ينهض لبنان بكل موكبه الرسمي، بكل أجهزته، بكل قوة الدولة فيه لكي يغلق كل أبوابه، لكي يضع كل الحراسة على كل حدوده ومطاراته خوفاً من هذا الإنسان الذي يحتمل أن يكون احتمالاً من احتمالات التحدي، الذي لا يحتمل أن يكون كذلك.

لبنان يعيش كل هذا الذي يعيشه، يعيش كل هؤلاء الناس، كل هذه المذاهب، كل هذه الخصومات، كل هذه التناقضات، كل هؤلاء العملاء المتجندين في كل الجبهات ــ لبنان يعيش كل هذه الأخلاق، كل هذا الخروج على الأخلاق، يعيش كل هذه الأفكار، كل هذا الخروج على الأفكار ــ ثم يعجز أن يعيش إنساناً واحداً، أن يعيش فيه إنسان واحد ــ ثم تنهض كل سلطة الدولة في لبنان لكي تعاقب بالطرد المذل إنساناً واحداً ــ إنسانا لا يحتمل أن يكون تحديا لأحد، ولا هزيمة لأحد، ولا منافسة لأحد، ولا إزعاجاً لأحد، ولا إهانة لأحد، ولا إحراجاً لأحد.

لبنان يعيش كل هذا الذي يعيشه، كل هؤلاء الناس، كل هؤلاء العملاء الذين يعيشهم، ثم يعجز أن يعيش هذا الإنسان، ثم يرفض أن يعيش فيه هذا الإنسان، ثم يخاف أن يعيش فيه هذا الإنسان، يخاف على أفكاره، على مذاهبه، على تأريخه، على آلهته، على أمجاده، على صداقاته لجيرانه، على تعامله معهم، يخاف على كل ذلك من هذا الإنسان العربي الواحد الذي لا يستطيع أن يكون إغراءً ولا تخويفاً... الذي لا يستطيع أن يكون تهديداً لمصالح أحد، ولا خطراً على فساد أحد.

إذن كيف أستطيع أن أنسى أو أصمت أو أغفر؟

إذن كيف تستطيع أنت أن تنسى أو تصمت أو تغفر؟ إذن كيف يستطيع أي لبناني أن ينسى أو يصمت أو يغفر؟ إذن كيف يستطيع أي إنسان أن ينسى أو يصمت أو يغفر؟ إذن كيف يستطيع أي شاعر، أي مفكر، أي فنان، أن ينسى أو يصمت أو يغفر؟

ان صورة رهيبة دميمة مهينة تعيش الآن في عقلي، في أعصابي، في أحلامي، تعذبني، تهزمني، تشتمني، تتحدى كل نماذجي الأخلاقية والفكرية والإنسانية، تتحدى كل ما تعلمت، كل ما سمعت، كل ما قرأت، تتحدى كل أربابي، كل زعمائي، كل تأريخي، كل آبائي، كل أنبيائي، كل المعلمين الذين جاءوا ليعلموني معنى الشجاعة في الإنسان، معنى الصدق، معنى الكرامة، معنى العدل، معنى الرفض فيه، معنى الكبرياء.

إنه يملك شيئاً يجب أن يظل يملكه، يجب أن يزداد له إمتلاكا. انه يملك الانفتاح الإنساني، يملك القدرة على استقبال كل احتمالات الإنسان، كل صيحاته، كل مستوياته، كل تحليقاته، كل ما فيه من شعر، من نبوة، من إيمان، من رفض للإيمان، من ذكاء، من غباء، من حقيقة، من خرافة، من تحدٍ، من استسلام.

انه يملك الانفتاح لكل الإنسان، انه يملك الانفتاح على كل إنسان. انه يجب ان يملك كل هذا الانفتاح، ان يظل يملكه، ان يقاتل ليملكه، ليظل يملكه. وإلا فماذا يمكن ان يظل له، أن يتمسك به، أن يناضل دونه، أن يزعمه لنفسه؟

أتمنى ان يتجمع في لبنان كل فرسان التاريخ، كل جياد التاريخ ليهزموا عنه الهزيمة، ليغسلوا عنه هذه الخطيئة، ليردّوا إليه تسامحه، حريته، كرامته، استقلاله، انفتاحه على كل الآفاق، لكل الآفاق، ليجعلوه مُلكاً لكل الناس دون أن يملكه أحد من الناس، ملكاً لكل الأفكار دون أن يملكه أحد من الناس، ملكا لكل الأفكار دون أن يتحوّل إلى عبد لبعض الأفكار، إلى عدو لبعض الأفكار.

أتمنى، أتمنى لك يا لبنان، أتمنى أن تكفّر عن هذه الخطيئة، عن هذه الإهانة، أن تكفر عنها بعنف، بقوة، بإصرار، بصراخ، بفروسية.

أتمنى، أتمنى.

١٩٦٧/٤/٢١ ــ **عبد الله القصيمي**

صديقي عبد الله القصيمي

استغرابك لما يجري في لبنان يحمل الإنسان على الظن أنك ساذج. إني أرفض أن أصدقك أنك ساذج. يجب أن نتعلم انتظار الأسوأ، دائما، من الدول، خصوصاً عندما تكون الدول منبثقة من مجتمع تركيبه اصطناعي وقيمه زائفة. هكذا دولة هي، حتماً، دولة تسويات ومساومات وتنازلات وتجاوزات.

أما استغرابك "كيف يستطيع" الشعراء والمفكرون والفنانون أن ينسوا أو يصمتوا أو يغفروا، فهو يجعلني أضحك.

ماذا يستطيع هؤلاء أن يفعلوا غير أن لا يفعلوا شيئاً؟ هل خدعتك مظاهر الحرية ومزاعمها في لبنان؟ أم انك، بالقياس إلى الدول العربية الأخرى، ترى لبنان جنة، ثم تظنه جنة بالفعل وفي المطلق؟

هؤلاء الذين ذكرت يستطيعون النسيان والسكوت والغفران بسهولة، وقد اعتادوا ذلك وأفظع منه في الماضي البعيد والماضي القريب والحاضر. نحن في لبنان أهل عيش، أهل "كَيف"، أهل عرق ومازه ولهو، أهل بيع وشراء وما بينهما، أهل مال وأعمال، أهل طيبة، ولكننا شعب يكره وجع الرأس. وأنت كنت وجع رأس.

كنت وجع حقيقة، وجع شهادة، وجع ضمير.

ونحن في لبنان نفضل السترة ولا نحبّ المشاكل. نقول للحقيقة: كوني حقيقة، ولكن بعيداً.

لذلك أبعدوك.

وحين أبعدوك قلنا : هذه خيانة عظمى.

أتريد الحقيقة؟ وجودك في لبنان، بقاؤك في لبنان هو الخيانة العظمى.

كنت شوكة في خاصرتنا. كنت قذى في عيننا. كنت كابوساً على لبنان.

لبنان الصغير، المستمع، المساير، الذي لا يحب المشاكل.

الذي لا يريد وجع الرأس.

الذي يريد السترة.

الذي جعلوه لا طعم ولا لون. والذي كنا حملناه على هوى حبّنا، فأفقنا لنجد أنفسنا دخلاء...

أدونيس

الخرافة، الغباء، الطغيان
(حوار مع عبد اللّه القصيمي)

لا تستطيع ان تمسك به. فهو صراخٌ يقول كلّ شيء ولا يقول شيئاً. يخاطب الجميع ولا يخاطب أحداً. أنّه الوجه والقفا: ثائر ومتلائم، ملتزم وغير ملتزم، بريء وفتّاك.

وأنت عاجز عن وصفه. فهو بركان يتفجّر، والحمم كلمات تحرق، لكن فيما تزرع العشب. تهدر وتتآكل وتتفتّت، لكن فيما تهدل وتتناسل تتكاثر. فهو تيارٌ جامح مهيب من المدِّ والجَزر، من الإنقراض والإنبعاث، من الجمود والحركة. مسكون بشحنة الإحتجاج، مسكون بشحنة القبول بعجز الإحتجاج، متناقض ومنطقيّ، شعري وعقلاني، معتم وصافٍ: كأنّه الرّمل وقطرة المطر.

في هذا كله تبدو كلمته فعلاً آخر من أفعال الخلق. يحرّك العالم فيما يعبِّر عن القوى التي تحرّك العالم. ولا يقدم أقنعةً من الحياة ومظاهرها وطاقاتها، وإنما يعرض هذه الطاقات والمظاهر بكلِّ ما فيها من الرُّعب والحيوية والشّهوة والعنف. أنّه صرخة خلاص من الأقنعة، وسفرٌ الى الأطراف القصوى.

هكذا تتقاطع في صوته أصداء كثيرة: من هيراقليطس حتى العبثيّة المعاصرة مروراً بنيتشه وماركس. لكنّه يبقى غريباً، أصيل النبرة والبُعد، نفّاذ الحضور، حتى ليصعب ان يوصف العربي الذي لا

يقرؤه، بانه مثقّف أو بانه يحيا على هذه الارض العربية الرائعة المضطربة، في هذه الحقبة الرائعة المضطربة.

عبد اللّه القصيمي، في الفكر العربي، حدث ومجيء: حدث لأن صوت هذا البدويّ الآتي من تحت سماء المدينة ومكّة، صوتٌ هائل فريد. ومجيء لأن في هذا الصوت غضب الرؤيا والنبوّة.

* ماذا تريد أن تقول؟

ـ لا أريد أن أقول للآخرين شيئاً ، انما اريد ان أرمي نفسي خارج نفسي. فأنا في كتاباتي أعتقد أنني أعتدي على الآخرين، وأعتقد ان جميع الكتّاب هم كذلك، مهما أنكروا.

* ماذا تريد أن تقول بهذا الخروج؟

ـ أريد أن أستريح لأنني لا أطيق ان أصمت. فالخروج مطلوبٌ لذاته وأنا أتحدث عن الخروج هنا، من حيث الحافز لا من حيث النتيجة.

* هل نفهم من ذلك ان نزعتك فنيّة جماليّة؟

ـ لا يهمني اسلوب التعبير، بل يهمني التعبير. وإن كنت أريد طبعاً أن أُجوِّدَ تعبيري لاني أعرض ذاتي على الآخرين، لا على الفراغ. لهذا اريد ان أُجوّد عرض ذاتي، كأي إنسانٍ يعرض ذاته.

* ماذا تريد أن تعرض عبر عرضك ذاتك؟

ـ طبعاً عندي سلعة فكريّة معيَّنة، أو بتعبير آخر، شحنة فكرية معينة تجمّعت تحت ظروفٍ مختلفة. فأنا أستريح جداً حينما أعرض هذه السلعة أو الشحنة. ولا أطيق، كما لا أريد، أن أعرض سواها، لان ذلك يجعلني خارجاً على نفسي.

* أنت إذن مسكون بهذا الذي تسميه سلعة أو شحنة.

ـ تماماً. هذا هو التعبير الذي كنت أبحث عنه.. فأنا فعلاً مسكون. كان، في السابق، يسكنني الآلهة، المعلّمون الخالدون، والآن يسكنني عالَمٌ آخر مضاد.

* ما هذا العالم؟

ـ هو ما كتبته في كتابي "العالم ليس عقلاً" وما كتبته في الكتابين اللّذين سيصدران قريباً "كبرياء التأريخ في مأزق" و "هذا الكون،ما ضميره؟"

* لكن، هل يمكن أن توضح لنا حدسك الأساسي في هذه الكتب؟

ـ أعتقد أنني لو حاولت أن أوجز لاعتديت على هذه الكتب، وأنا أكره العدوان بجميع أشكاله، لأنني ضعيفٌ جداً.

* لو سئلت عن جوهر اهتمامك كمفكّر فماذا تجيب؟

ـ أحاول أن أعبّر عما يضايقني ويثير احتجاجي وينكره منطقي في كلّ شيء، في الكون أو في النهر، أو في الشمس، أو في الليل، أو في الحشرة، أو في الإنسان العادي الذي يهتف للغباء وللطاغية، أو في

الطاغية نفسه... أو في مجتمعاتنا، أو في مجتمعات الآخرين.. أو في المجتمعات التي تخاصمنا.. أحتجُ أحياناً على الغمامة التي تُسقِطُ مطراً على بلدٍ لا يحتاج إليه، وترفض ان تزور بلداً يحتاج إليها، أعظم إحتجاجي على شرٍّ طاغيةٍ يسحق مجتمعاً أحبُّه. لأن لهذا الطاغية أعذاره في أن يسحق، وأما الغمامة فليس لها عذرٌ في أن توزع نفسها توزيعاً سفيهاً.

* أنت تحتج، وهذا عظيم، فماذا تقدِّم؟

ـ أقدم العوالم التي تسكنني.

* أليس هذا جواب شاعر أكثر مما هو جواب مفكر؟

ـ يرضيني أحياناً أن أكون شاعراً لا مفكراً. وأنا في الحقيقة مفكر، لو كنت مفكراً، لأنني شاعر لو كنت شاعراً، والعكس في رأيي لا يحتمل ان يكون صحيحاً.

يعني أنني لا أكون شاعراً لأنني مفكر، وإنما مفكر لأنني شاعر.. وأنا أشكرك جداً على هذه التهمة، تهمة الشاعرية. فالشعر ليس عروضاً، وإنما هو أحاسيس، واستقبال للأشياء.

* هل تُعنى بالماضي أو بالحاضر أو بالمستقبل؟

ـ أُعنى بالماضي للخروج منه وعليه. وأُعنى بالحاضر للتعامل معه والاحتجاج عليه. وأُعنى بالمستقبل لأنه يخلّصني من الماضي.. ولو وُجدَ ما يخلّصني من الماضي والحاضر والمستقبل، لكان هذا هو الأفضل.. طبعاً لا أعني الموت أو الإنتحار.

www.ithar.com

* هل تقصد بالماضي، الماضي كله؟

ـ لا أعني به الشمس والقارات والإنسان... ولكنني أعني الصِّيغ الإنسانية المختلفة التي كنتُ أقرؤها وأتصورها وأُحدث عنها وأعانيها، فتسحق منطقي ونفسي وأخلاقي.

* أليس في هذه الصيغ شيئاً ما تشعر أنّه لا يزال يشدّك إليه؟

ـ نعم. هناك صيغٌ معيَّنة عانيتها وعشت فيها، أشعر أنها تشدني. ولكنها لا تشدني إليها، بل تشدني عنها، لو جاز هذا التعبير.

* هل يعني هذا أنك ترفض الماضي برمَّته؟

ـ في كتابي الذي سيصدر عن قريب "هذا الكون، ما ضميره؟" فصل بعنوان "ولادة فوق الصخور"، قذفت فيه كلّ احتجاجاتي على الماضي وصيغه، بإسلوب أرجو أن يكون عنيفاً جداً، وإن كنت لا أؤمّل أن يكون ظالماً لتلك الصيغ التي كنت أرفضها، لأنه لا يوجد ما يمكن أن يكون ظالماً لها، لأنها هي أعلى مستويات الظلم للإنسان.

* هل هي صيغ فنيّة، إيمانية، ثقافية..؟

ـ هي صيغ تتجمّع في حياة الإنسان المعذّبة غير المتحضِّرة، غير المتنورة، التي تقتات كلّ البداوة الإنسانية.

* الزمن وحدةٌ، فإذا كان ماضينا مظلماً كله، فإن حاضرنا مظلم كله، أي أن كلّ شيء في الحاضر، مظلمٌ بالتالي..

ـ الأفضل دائماً يخرج من الأسوأ. والحياة تخرج من المادة، والعبقرية تتولد عن الغباء، والحضارة أوجدتها البداوة. ولكن للقفز من الأسوأ الى الأفضل قوانينه وضروراته، ولهذا فإن القفز دائما محكوم. محكوم بنفسه ومحكوم بظروفه، وبطاقات القافزين.

* كيف تفسِّر، من وجهة نظرك هذه، تطور الحضارة؟ أليس في موقفك هذا ما يشبه الموقف الغيبي، الإيماني؟

ـ قلتُ إن التطور خاضع لقوانينه وطاقاته وضروراته.. وليس في الموقف الغيبي خضوع للضرورات أو للقوانين أو للذاتيات وإنما فيه قفزات من أعلى، أو إلقاء من أعلى.

أؤمن بالإنسان، لا بمنطقية وجود الإنسان، ولا بمنطقية سلوكه، ولا بمنطقية إحتياجاته أو بقائه، بل أؤمن، أو على الأصحّ، أريد أن ينجو الإنسان من كلّ الآلام، وان يمتلك جميع الظروف الملائمة له، لأنه قد وجد، وحيث أنّه وجد، فأنا أريد أن يسعد.. بقَدْر ما للحشرة أو للحيوان ان يسعد.. لكن شريطة ألاّ تكون هذه السعادة على حساب حيوان آخر، ولاسيّما إذا كان هذا الحيوان الآخر هو الإنسان.

* وهل السعادة ممكنة؟

ـ السعادة كلمة تأريخية تقليدية غير محددة. فمن الممكن أن ينال الإنسان كثيراً من احتياجاته، وأن يهزم كثيراً من آلامه ومخاوفه. فإذا كانت هذه هي السعادة، فالسعادة إذن ممكنة..بل أكاد أقول إنها

محتومة. وأما إذا أريد بالسعادة أن يملك الإنسان جهازاً نفسياً أو فكرياً أو جسمياً لا يقلق ولا يحتج ولا يتعذب، فإن هذه السعادة بهذا المعنى غير ممكنة.. وليس مما يسعد الإنسان أن يملك مثل هذه السعادة. ولهذا نجد جميع القدماء الذين تحدثوا عن آلهتهم، لم يتصوروهم سعداء بهذا المعنى، بل تصوروهم معذَّبين بالقلق والاحتجاج والتناقض مع الاشياء الأخرى، الاشياء التي خلقوها، وقد خلقوها مناقضة لهم لتحقق لهم سعادة التعذّب والاحتجاج والشعور بالتناقض.

ولعلّ تصورهم للجنة والنار هو أعلى مستويات التصور للبحث عن هذه السعادة لِلآلهة. ولعل خلق الشيطان وتخليده هو قمة البحث عن هذه السعادة التي تعذّب الآلهة.

* هذا موقف أخلاقي.. فهل انت، أو هل تحب ان يُقال عنك، مفكر أخلاقي؟

ــ أعتقد ان الأخلاق كلمة لاهوتيّة، فعندما تقول لي "انت أخلاقي" لا أستطيع أن أفهم ماذا تعني بكوني أخلاقياً. إذا كان القصد بالأخلاقية التلاؤم مع الآخرين، فقد تكون الأخلاقية حينئذٍ قمة الخروج عن الأخلاقية. لأن التلاؤم يعني النفاق والكذب وما في معناهما، وهذا ضد الأخلاقية. ولو إنك عبّرت بتعبير آخر غير أخلاقي، كأن تقول لي أنت نفسي أو ذاتي أو تلاؤمي لكان أقرب الى ان أفهم، وإلى ان أجيب عن السؤال. فأنا طبعاً ذاتي أو نفسي أو تلاؤمي حينما اكون في الصورة أخلاقياً، مع أني، بحسب التعاليم

الأخلاقية، لا أكون أخلاقياً. فسلوكي كله وأهوائي كلها وتعاملي مع الآخرين، كلّ ذلك لا يعني إلاّ إنطلاقاً نفسياً ذاتياً، باحثاً به عن التلاؤم مع نفسي ومع الآخرين. إذن، فالأخلاقية لا يمكن ان تكون موجودة، بحسب تفاسير التعاليم الأخلاقية، عند أي إنسان مهما كانت قداسته.

* قصدت من الأخلاق المعنى الفلسفي الأجتماعي؟

ــ أريد طرد الألم، كلّ الألم، وليس كلّ ما كتبته إلاّ إحتجاجاً على الألم والقبح. ولكن حوافزي ليست غيريّة. إنها ذاتية. فأنا أحارب هذه الأشياء لأنني أنكرها، لا لأن الآخرين ينكرونها. فأنا أقاومها من داخلي لا من داخل الآخرين.

* أنا أسمِّي هذا غيريّة، أي بناءً، وأتساءل كيف يمكن ان يسمي بعضهم هذا الموقف، موقفاً هداماً؟

ــ هذه الغيريّة تعبير عن الذاتية. فألَمُ الآخرين يقلقني لأنني أتألم لهم، لا لأنهم متألمون. فمشاهدتي الألم تصنع لي الألم. وأما ما يقوله بعضهم من أنني هدام، فإنني أقول لهؤلاء: عندما تتهمونني بالهدم، وتقولون لي قف لا تهدم، فأنتم حينئذٍ تشبهون من يطلبون من الذين يقتلون الحشرات وجراثيم المرض، ومنظّفي المدينة، أن يقفوا عن أعمالهم، لأنها أعمال هدْميّة. فأنا، نعم، هدّام.. أهدم الخرافة، الغباء، والطغيان، والقبح، والتأريخ الأليم. وأعني بكلمة أهدم هنا: أحتج، وأصيح لأنني عاجز عن الهدم بالكلام، بقدر عجز مخالفيَّ عن البناء

بالكلام. فكلانا عاجزٌ عن الهدم والبناء بالكلام. ولكن أحدنـا يحتـج، والآخر يرفض الإحتجاج، وأنا الجانب الأول.

* هل تعتقد أن هناك حقائق موضوعية وأنت تسعى لأكتشـافها، أم تعتقد أنك تبحث عن نفسك وليس هناك حقائق خارجة عنها؟

ـــ أنـا مدفـوع بـلا تدبـير لا مـن عقلـي ولا مـن نفسـي، الى ان أتصادم بكل الأشياء، تصادمًا عقلياً وعاطفيـاً. وهـذا كـلّ مـا أفعلـه. فهل هذا انتصارٌ للحقـائق الموضوعيـة؟ وأنـا لا أريـد أن أزيّـن نفسـي بتعبـيرات يراهـا الآخـرون تزيينـاً لأنفسـهم. بـأن يُقـال عنهـم إنهـم يدافعـون عـن حقـائق موضوعيـة. فأنـا منطلـقٌ دائمـاً بـلا أي تدبـير كإنطلاق أي شيء في هذا الكون. وإذا دبّرت شيئاً فتدبيري ناتجٌ عن لا تدبـير. وهكـذا أنـا أبـداً، وهكـذا الآخـرون جميعـاً وإن لم يعـترفوا بذلك.

* هذه عبثيّة تتنافى جوهرياً مع إهتمـامك بنفـي الألم عـن النـاس وتوفير السعادة لهم؟

ـــ مقاومـة الألم ناتجـة عـن مواجهـتي لـلألم، وأنـا والألم، أو أنـا والحقيقة الصانعة للألم، كلانا عبث، فعبث يقاوم عبثاً. أنا أحتج على الألم ولا أستطيع إلاّ أن أحتج عليه، فإذا كان إحتجاجي المنطلـق عـن ذاتي فقط، عبثاً، فأنا أول العابثين، ولا أستطيع أن أكون غير ذلك.

* أنا لست ضد العبث، إنما أريد أن تسـوّغ لنا حيـاتك في عـالم قائم على العبـث، وحيـاتك كمفكـر خصوصـاً سـلاحه الأول وربمـا الأخير هو صياحه واحتجاجه.

ـ أنا لا اسوّغ حيـاتي وإنمـا أحياهـا، كمـا تُفـرض علـيّ وكمـا تفرض علي الظروف الخارجية، ومقاومتي لما أنكر ليس تسويغاً لحياتي وليس تسويغاً لأي شيء، وإنما هو اسلوب من أسـاليب التصـادم مـع الأشياء التي لا نستطيع إلاّ أن نواجهها.

* أنت أنكرت سابقاً أن يلجـأ الإنسـان الى الإنتحـار، وفي عـالم كالذي تصوّره يتساوى الموت والحياة.

ـــ إذا أردت بـالموت أن أفقـد وجـودي، فـلا يتسـاوى المـوت والحياة، بالضرورة الذاتية المعروضة علـيّ. وأمـا إذا أردت بـالموت ألاّ أكون موجوداً أصلاً قبل ان ألتزم الوجود، فإن منطقي يقول لي أيضـاً ان المـوت والحيـاة لا يتسـاويان، بـل المـوت حينئـذٍ أشـرف وأنظـف وأفضل. وأنا أعـني بـالموت هنـا أن لا أوجـد، ولكـن بعـد ان أوجـد وأكون حيّاً، فإني منطقياً أرى ايضاً أن الخروج من هذه الحياة أفضل، ولكني لا أستطيع أن أنفّذ منطقه، فلا يوجد انسـان يسـتطيع ان ينفّـذ منطقه، ولكنـه ينفّـذ وجـوده كـأي شـيء غـير الإنسـان . هـو ينفّـذ وجوده لا منطقه، ولا أي منطق في هذا الكّون. وحتى المنطق إنما هـو بحث عن الوجود أو عن تنفيذ الوجود لا عما هو أفضـل منطقيـاً. ثـم ما هو المنطق؟ هذه كلمة أيضاً تحتاج الى تفاسير كثيرة.

* يبدو من جوابك أنك تعدّ الحياة ورطةً؟

ــ إنها ورطة يرفضها منطقــي بــلا حــدود، لأنهــا تلــوُّثٌ وعجــزٌ وضعــف وألم. ولكنــي لا أستطيع أن أتخلـص منهـا بقــدر مـا تعجــز الحشرة التي أذمّها بكل لغاتي وبكل أشعاري عن أن ترفض وجودها غير النظيف وغير العظيم. ونحن في خضوعنا لوجودنا حَشريّون تماماً. ومهمـة منطقنـا وتفوّقنـا أن يقـوّي هـذا الوجـود، وأن يحميـه، أي أن يقوي ويحمي فينا صفات الحشرات. وهي الإستمساك بالوجود مهمـا كان هذا الوجود ملوّثـاً ومذمومـاً، بتعاليمنـا وأدياننـا ومنطقنـا. إنـي أحتقر نفسي عندما أشعر أنني سأكرر نفسي غداً، وبعد غد، وهكذا، أكرر تفاهاتي وانفعالاتي ومخاوفي، وكـل مـا أفعلـه يفعلـه غـيري مـن الأشياء. أحتقر كلّ ذلك وأخجل منه، ولكنني وآسـفاه محكـوم علـيّ بالبقاء ، إلاّ إذا اضطررت اضطراراً الى مفارقته بـأن يسـحقني طاغيـة من طغاة الارض أو سهم أحد طغاة السماء. إذا كنت سـأفارق هـذه التفاهات أفليس مــن الأفضـل أن أفارقهـا بالإسـلوب الـذي أختـاره، وبالوقت الذي أختاره، وبالوقت الذي أختاره، وبيدي، وبالصيغة التي أراها أقرب إلى الرضى عن نفســي. أليـس هـذا أفضـل مـن أن انتظـر حتى يحكم عليّ به، بوقت لا أختاره، وبإسلوب لا أرضاه وبصيغة قد أنكرها، بعد أن أهــون وأتلـوَّث وأتعـذب؟ ولكنـي لا أسـتطيع، فأنـا عاجز أمام نفسي.

* من هذه الزاوية يبدو العالم كله دائرة مغلقـة، والمسـتقبل مهمـا كان ليس إلاّ صورة مكررة عن المـاضي والحـاضر، بينمـا قلـت إنـك تعني بالمستقبل، فهل تعني به للذّة التكرار أم للذّة الإكتشاف؟

ـــ لا يمكـن إفـتراض صيـغ المـاضي والحـاضر والمســتقبل صيغـاً موحَّدة، بل هي صيغ مختلفة، وأنا أبحـث عـن هـذا الإختـلاف. وقـد أكون مع هذا غير دقيق أو غير صادق، وإذ أنّه لو كانت الصيغ متفقة لأضطررت أيضاً الى أن أناضل ضد الصيغة الموجودة الدائمة الخـالدة، لأني لا أستطيع إلاّ أن أناضل، لأن نضالي ضــد الأشياء أو مـن أجـل الأشـياء، ليـس إلاّ نضـالاً ضـد نفسـي، ومـع نفسـي وهـذا النضـــال مفروض عليّ فرضاً.

* ما هو إذن موقع الإنسان ضمن الوجود المفروض عليه. كيـف تنظر مثلاً الى الإنسان في العالم العربي؟

ــ أولاً، أكـثر مـا يرهبـني جـداً في العـالم العربـي، بـزوغ الطغـاة المتجبرين جداً، المتفجرين تباعاً في العالم العربي يسحقون كـلّ معانيـه بوسائل حضارية صنعها قوم متحضـرون، فاسـتوردها هـؤلاء الطغـاة لينفذوا بها بداوتهم الأخلاقية والنفسية والفكرية. فأبشع ما في هؤلاء أنهم همجية تملك وسائل حضارية. وأبشـع مـا في هـذا أن المجتمعـات المتحضرة تمكن هؤلاء الطغاة بمختلف الوسائل التي تهبهم القدرة على الإذلال والبطش، وعلى سحق القيم كلهـا الـتي جـاءت بهـا حضـارة تلك المجتمعات. وأنا أعتقد أن هـؤلاء البـازغين في عالمنـا سـيتكاثرون جداً، بإسـم الثوريـة والمذهبيـة. إنـي أتصـور هـؤلاء فأشـعر بالرهبـة.

وعندما أفكر: هل يمكن أن توجد سدود تحول بين المجتمعات العربية وهذا الطوفان من الطغيان النابع من داخلها، لا أجد أي سدٍّ من هذه السدود المنتظرة. وتوجد اليوم غواية دولية هائلة، أو منافسة دولية تضع في خدمة هؤلاء الطغاة المذلّين كلّ ما يريدون. وهنا أشعر بالخوف. أو بما يشبه اليأس.

* تظنُّ إذن أننا منذورون للطغاة؟

ـ أظن أننا واهبون أنفسنا فترة طويلة لهذا الطغيان الذي تساعده ظروف دولية غير نبيلة.

* إذن هناك أمل بزوال الطغيان والطغاة؟

ـ حتماً، لا يمكن إغلاق جميع إحتمالات الأمل. حتى من يكون على أعواد المشنقة يكون عنده أمل بالنجاة. والأمل دائماً ليس حالة فكرية وإنما هو فرارٌ نفسي، في الأكثر، من اليأس.

* كيف يجب أن نقف من الطغيان؟

ـ إننا لا نقف بالأسلوب الذي يُقال لنا به: قفوا ! ولكننا نقف حين نجد أننا لا بُدّ من أن نقف.

* مع أي إسلوب من أساليب العمل الثورية أو الديمقراطية، تقف؟

ـ لقد أستُعمِلت كلمة "الثورة" أو "الثورية" واستُغِلّت في عالمنا حتى صرت أمقتُها، وإن أُطلِقت على أنبل الأشياء، وأُريدَ بها أغزر مشاعر الحبّ.

* والديموقراطية؟

ـ أما الديموقراطية فإن في كتابي "كبرياء التأريخ في مأزق" فصلاً بعنوان "هل الحرية كسبٌ للإنسان أو للصوص؟" يجيب عن هذا التساؤل، ولا أريد أن أعتدي وألخّصه.

* ماذا تريد أن تقول لهؤلاء المستسلمين المقهورين؟

ـ أستعمل نفسي هنا كواعظ، فأنا أطلق احتجاجاتي على استسلامهم، مع اقتناعي بأن المواعظ والنصائح لا تجدي، لأن هناك نصائح ومواعظ مضادة، فبأي منها إذن، يتأثر المستمع أو القاريء؟

* هل تعني أن ليس هناك مخرج؟

ـ المخرج يوجد حين يوجد من يستطيعون أن يخرجوا.

---

*("لسان الحال"، بيروت، ١٩٦٥).

www.ithar.com